الفصل الثالث

مصادر الصورة البيانية
فى شعر أبى الطيب

تمهيد :

الكون : بكل ما فيه من أرضه ، وسمائه ، شمسه ، وقمره ، نجومه ، وأفلاكه ، ليله ، نهاره ، إنسانه ، وحيوانه ، جباله ، وصحرائه ، وهاده ، ونجاده ، زروعه ، وثماره ، وأشجاره .

والنفس الإنسانية : بكل ما يتوارد عليها ، ويتردد بداخلها من فرح ، وحزن ومن ألم ، وأمل ، من رضا ، وسخط ، ومن قوة ، وضعف ، ومن سرور ، وغم ، ومن حب ، وبغض ، ومن لين ، وعنف ومن حرية ، وقيد .

كل أولئك ما فى الكون والنفس كان الميدان الفسيح الذى انتزع الشاعر منه العناصر التى أعاد صياغتها ، وأتقن إبداعها وإخراجها . وشكل منها صوره بعد أن نسق بين دلالاتها ، وأفرغ عليها من عصارة نفسه ، وعمق إحساسه وذوب وجدانه ما جعل منها تجربة فنية ناجحة .

إن عناصر الكون بعمقه ، وسعته ، وبكل شىء فيه . وإن الجو النفسى للمتنبى بكل ما فيه من آمال ومطامع مع روحه القوية بكل ما تتسم به من إباء ، وحرية ، وكفاح وقبول ، ورفض ، وحركة ، وحل ، وترحال إن هذا كله هو الذى أملى على الشاعر صوره الشعرية . والتى صور فيها الأرض والسماء ، والبر ، والبحر ، والجو ، والإنسان والحيوان والطير مما ستراه فى موضعه ومكانه من هذا الفصل .

تصوير الأسد :

المتنبى فاتك همام ، وهو أخو أسفار . تعرفه الخيل ، والمهامه والقفار . ويجىء حديثه عن الأسد لما يمثله سيد الغابة ويرمز إليه من القوة ، والشجاعة ، والغلبة والفتك . وكلها وغيرها نماذج يتغنى بها الرجل ، ويرجعها على قيثارته .

ويرى فيها معادلا لشخصه وللممدوح الذى يخلع عليه كل تلك الصفات . فهو يصف الأسد من خلال مدحه لبدر بن عمار فيقول[1] :

١) وَرْدٌ إذَا وَرَدَ البُحيـرةَ شـاربا ... وَرَدَ الفُـراتَ زئيـرهُ والنِّـيلا
٢) مُتَخَضِّبٌ بِدم الفوارس لاَبَسٌ ... فـي غِيلِـه مِـنْ لِبْدِتَيْـه غِـيلا
٣) مـا قُوبِلَـتْ عَينـاه إلاَ ظُنَّتَـا ... تَحْـتَ الـدُّجَى نَـارَ الفَرِيـقِ حُلُـولاَ
٤) يَطَـأُ الثَّـرى متَرفِّقـاً مِـنْ تِيهِـه ... فكأنَّـه آسٍ يَجُـسُّ عَلِـيلاَ
٥) وَيَـرُدّ غُفْرتَـه إلَـى يَافُوخِـه ... حَتَّـى تَصِـير لرأسِـه إكْلِـيلاَ
٦) وَتَظُنُّـه مِمَّـا يُزَمْجِـرَ نَفْسُـهُ ... عَنْهَـا لِشِـدَّةَ غَيظِـه مشْـغُولاَ
٧) قَصَـرَت مَخَافَتُـه الخُطَى فكأنَّمـا ... رَكِـب الكَمَّـيُّ جـوادَه مَشْـكُولاَ
٨) أَلْقَـى فَرِيسَـتَه وَبَرْبَـر دُونَهـا ... وَقُرَبَـت قُربًـا خَالَـهُ تَطْفِـيلاَ
٩) فَتَشَـابه الخُلُقَـانِ فِـى إقْدَامِـهِ ... وَتَخَالَفَـا فِـى بَـذْلِكَ المـأكُولاَ
١٠) أَسَدٌ يَرى عُضْوِيْه فِيك كَلِيهِمَا ... مَتْنَـا أَزَلّ وَسَـاعِدًا مَفتُـولاَ
١١) مَـازَال يَجْمُـعَ نَفْسَـه فِـى زَوره ... حَتَّـى حَسِـبتَ العَـرْض مِنْـه الطُّـولاَ
١٢) وَيَـدُقّ بالصَّـدْر الحَجَـار كأنَّـه ... يَبْغِـى إلـىَ مـا فِـى الْحَضِـيضِ سَـبيلاَ
١٣) فكأنَّـه غرَّتـه عَـينْ فـادّنى ... لا يُبْصِـرُ الخَطَـبَ الجَلِـلَ جَلِـيلاَ
١٤) أَنِـفُ الكَـرِيمِ مـن الدَّنِيـةُ تَـارِكٌ ... فـى عَينِـهِ العَـدَد الكَثِيـرَ قَلِـيلا
١٥) والعَـار مُضَـاضٌ ولَـيسَ بخَـائفٍ ... مِـنْ حَتْفِـه مَـن خَـاف مِمَّـا قِـيلا
١٦) سـبق التقاءكـه بِوَثْبَـة هـاجمٍ ... لَـوْ لَـمْ تُصَـادِمهُ لَجَـازَكَ مِـيلاَ
١٧) خَذَلَتْـهُ قُوَتُـهُ وَقَـد كَافَحْتُـه ... فاسْتَنَصَـر التَسـلِيمَ والتَّجْـدِيلاَ
١٨) قَبَضَـتْ منِيَّتُـهُ يَدَيْـهُ وَعُنُقَـهُ ... فَكَأنَّمَـا صَـادَفْته مَغْلُـولاَ
١٩) سَـمِعَ ابـنُ عَمَّتُـه بِـه وبِحَالِـه ... فَنَجَـا يُهَـرْوِل مِنْـكَ أمـسِ مَهُـولاَ

ففى البيت الأول ترى هذا الورد الذى يهز زئيره العالى الكون هزا ، ويتردد صداه وهو يرد البحيرة شاربا فى مسامع النيل بمصر والفرات بالشام وما يبعث به من رعب ، وهلع . فهو كناية عن قوة الزئير وشدة الصوت ثم إن كلمة (ورد) إنما

---

(١) الديوان ٣/٢٣٨ وما بعدها .

تستعمل فى وصول المياه فيكون قد شبه وصول الصوت بورود الماء بجامع البلوغ والانتهاء استعارة مكنية .

وفى البيت الثانى ترى هذا المتخضب بدم فرائسه ، وتبصر مخالبه وأنيابه وانظر إلى الشاعر كيف يصف لبدة الأسد فى صورتها المخيفة وكيف يجعل من الشعر الكثيف على كتفيه غابة وهو لابس لها متخف فيها فيصير وكأنه فى غابتين : غابة من شعره ، وغابة من الشجر فى الغابة مما تدرك معه جلال الرهبة من هذا المفترس المتخفى والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه شعر الأسد الكثيف ولبدته اللتين تغطيان كتفيه بالغابة فى كثافتها وارتفاعها . ولا أظنك تطالع هذه الصورة إلا وينصرف ذهنك إلى ما يبعث به معنى الأسد من العنفوان والجبروت والرهبة والتخوف وكل ذلك مما تكنى عنه الصورة .

وحين يصف عينى الأسد فى قوله :

مـــا قُوبِلَـــتْ عَينـــاه إلاَ ظَنَنتَـــا تَحْـتَ الـدُّجَى نَـارَ الفَرِيـقِ حُلُـولاَ

ترى الشرر وهو يتطاير منها من خلال هذا الوميض والبريق ، وكيف يبعثان بهما فى لمعان وتوهج ، وسط دياجير الظلام ، فيشبه بريق عينى الأسد وما فيهما من حمرة ، ووميضهما الذى يشع منهما اللمعان بنار قوم حالين فى الظلام فى اللون والشكل ، وأنت تفهم من خلال هذا التشبيه أن حركة عينى الأسد تتبع حركة رأسه مما يعطى معنى أن وميضهما ، وبريقهما يشعان فى كل اتجاه وينتشران فى كل مكان . نظرا لحركة رأس الأسد شبه الدائرية . كما أن النار التى تشتعل فى ظلام الليل تشع بضوئها وتنفذ به فى كل مكان . إن جو الرهبة يسيطر على الصورة من خلال هذا الأسد ، ومن عينيه اللماعتين المتوهجتين وما يتطاير منهما من شرر يملأ المكان وكأنه نار مشتعلة يراها القريب والبعيد خاصة إذا كان الجو ليلا ، والظلام دامسا وهذا ما أفصحت عنه صورة التشبيه .

فإذا تركت وصف الشاعر لعينى الأسد وذهبت إلى وصفه لمشيته فى قوله :

يَطَـأُ الثَّـرى متَرفّقـاً مِـنْ تِيهِـه فكأنَّـــه آسٍ يَجُـــسُّ عَلِـــيلاَ

رأيت الصورة فى البيت معبرة عن الموقف النفسى لملك الغابة من خلال توافق حركته الداخلية مع حركته الخارجية فأنت تحس بالهيبة والاستعلاء ، والتوثب ،

والتحفز من خلال هذه المشية المترفقة المتأنية فى تيه ودلال ، ووطئه للثرى على هذا النحو وكأنه لا يرى غير نفسه إذ ليس فى الأرض قوة تعدل قوته أو تقترب منها ثم انظر كيف يصعد الإحساس بهذا كله حين يصور التشبيه تلك المشية وكأنه يؤثرها خوفا من أن يسبب للأرض ألما أو يحدث بها عاهة ثم إنه لا يخشى شيئا ولا يخاف من شيء فعلام العجلة؟ إنه فى مشيته المترفقة طبيب يجس عليلا ، ويتحسس بيده الحانية موطن العلة من جسده . ويد المؤسى المعالج تمثل هذا أصدق تمثيل . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه مشية الأسد اللينة الهادئة المترفقة بحركة يد الطبيب المعالج يتحسس بها جسد مريضه فى رفق وأناة ومن غير عجلة ووجه الشبه بين الطرفين هو الحركة الهادئة المترفقة وقد ترى انفصالا فى الشعور والموقف النفسى بين حدى الصورة ، مشية الأسد وحركة يد الطبيب حتى ولو كان المقصود هو تشبيه الحركة المتمهلة البطيئة فى خطو الأسد بالحركة المترفقة فى يد الطبيب يشخص بها علة مريضة . مهما كان بينهما من توافق شكلى .

إذ إن الأسد جبار مخيف مستعل مفترس والطبيب حان معالج شفوق رحيم ، الأسد يرمز إلى الهلاك والفتك والموت والطبيب يمثل الأمل والنجاة والحياة فهما من واديين مختلفين ودع هذا : وانظر إلى الأسد فى صورة غاضبة مزمجرة يصورها التشبيه فى قول المتنبى :

وَيَـــرُدّ غُفْرتَـــه إلَـــى يَافُوخِـــه حَتَـــى تَصِـــير لرأسِـــه إكْلِـــيلاً

أرأيت إلى ملك الغابة المتوج ، وحاكمها الأعلى فى هيئته الراعدة حين ينفعل غاضبا ، ويثور فى حدة . إنه يرفع رأسه ويطوح به فى الفضاء جهة اليمين ، وجهة الشمال ليرد شعره المتدلى والمنسدل إلى رأسه فيجتمع عليها ويصير فى هيئة التاج وصورة الإكليل ، أو ليس ملكا حتى ولو كان للغابة فلم لا يخلع عليه الشاعر من خلال التشبيه أداة الملك وصفته لم لا يلبسه التاج؟

وهذا ما قد حدث والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه الأسد وهو يحرك رأسه فيرد الشعر المنسدل ، والمتدلى على عنقه ورقبته إلى رأسه وينصبه واقفا عليها بصورة التاج والإكليل على رأس الملك فى الصورة والهيئة . وتمضى الصورة الغاضبة من خلال هذا المزمجر فى قول الشاعر :

وَتَظُنُّـــه مِمَّـــا يُزَمْجِـــرَ نَفْسُـــهُ عَنْهَـــا لِشِـــدَّةَ غَيظِـــه مشْـــغُولاَ

إن الأسد فى الصورة السابقة يلبس إكليل الملك ويستوى على عرشه فى غابته وهو هنا يزمجر زمجرة عاليه يتردد صداها فى آفاق مملكته ونفسه التى بين جنبيه تقاذفها الظنون ، وتخشى أن يكون بزئيره وصياحه ، وتفرغه عليه صار كالمشغول عنها . فالتشبيه قائم من خلال تشبيه الأسد لانشغاله بزئيره ، وبترديده ، وعدم تفرغه لنفسه . بالمشغول الذى لا يجد فراغا والذى يجمع بين الطرفين هو الانصراف وعدم الاكتراث .

والتشبيه يصور هذه النفس فى توترها ، وقلقها ، بانشغال الأسد عنها بزئيره واهتمامه بإعلاء سلطانه فى غابته ، وبسط نفوذه ، وسيطرته عليها من خلال بث الرعب والفزع وإشاعة الخوف بين وحوشها وكواسرها من صوته ، وصياحه ، الذى يهز الفضاء ويملأ الزمان والمكان بالغيرى وكأن نفسه تطلبه لنفسها لا تريد ولا تحب أن يشاركها فيه غيرها حتى ولو كان زئيرا وصياحا من الأسد ذاته .

وفى البيت السابع ينسل الشاعر فى هدوء إلى المديح وأنت ترى ذلك من خلال خطوات الأسد التى تقاصرت بين إقدام وإحجام خوفا من بدر بن عمار حين بصرت به .

قَصَـرَتْ مَخَافَتُـه الخُطَـى فكأنَّمـا رَكَـب الكَمـيُّ جـوادَه مَشْـكُولاَ

إن خطوات الأسد بدأت تتقاصر ، وتضيق ، ونفسه موزعة أيقدم أم يحجم؟ إن ضيق خطوات الأسد تتمثل من خلال خطوات هذا الجواد المشكول المقيد يمتطيه كميه وفارسه الشجاع يحاول أن يحثه على المشى السريع ولكن خطواته مقيدة لأنه مشكول ، فلا ينهض برغبة الفارس .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه صورة الأسد وهيئته حين أبصر الممدوح بين إقدام وإحجام خوفا من بدر فتقصر خطواته ولا تطول بهيئة الفارس الشجاع يمتطى صهوة جوادة المقيد يريد أن ينطلق به ولكن قيد الفرس يمنعه . ويضيق خطواته ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من الشىء يريد أن يقدم وأن ينطلق ولكن يمنعه مانع فيحجم وتتقاصر خطواته ، ووجود الكمى مع الجواد هنا ضرورى ، لاستكمال عناصر الصورة التشبيهية فصورة الجواد المقيد من غير فارسه الشجاع لا يتوفر له الحافز والداعى إلى المسير والمشى ، أما الكمى يريد أن يسابق بفرسه

الريح إلى خصمه فهو شجاع ولكن القيد يمنع الفرس ويضيق مسافة خطواته فماذا يفعل؟ وبذلك يوجد توازن فى المساحة النفسية بين طرفى الصورة . فالقيد فى الفرس ، يقابله الخوف عند الأسد ، وامتطاء الفارس لجواده وحثه على الانطلاق يقابله الرغبة النفسية عند الأسد فى الإقدام واعتزازه بنفسه ، وأنه ملكُ الغابة الذى لا يهزم . ولكن الخوف يغلب فيه الشجاعة فتقصر الخطوات ولا تطول وبذلك تتعاون عناصر الصورة فى تشكيلها وإخراجها فى هذا الثوب الجميل بالإضافة إلى ما ترمى إليه وتوحى به من قوة الممدوح وهيبته تلك القوة التى جعلت الأسد يفكر أيقدم أم يحجم؟ وتتضاءل خطواته حين يستبد به الخوف ويملأ عليه أقطار نفسه .

ثم يصور حال الأسد وقد قرب منه بدر فألقى فريسته وبربر دونها صائحا وهو يظن أن الممدوح فى قربه كالمتطفل على مائدته جاء ليشاركه فيها والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه قربه من الأسد بالمتطفل ووجه الشبه هو دناءة النفس فى قوله :

أَلْقَـى فَرِيسَـتَه وَبْرَبَـر دُونَهَـا ... وَقَرُبَـتْ قُرْبًـا خَالَـهُ تَطْفِـيلاَ

ثم يبين أن الأسد والممدوح قد تشابها فى الشجاعة وإن كان الممدوح يتفوق عليه فى بذله وعطائه ، وعدم ضنه بفرائسه فهو يجود بها ولا يبخل فى قوله :

فَتَشَـابه الخُلُقَـانِ فِـى إِقْدَامِـهِ ... وَتَخَالَفَـا فِـى بَـذْلِكَ المَـأْكُولاَ

فالتشبيه ينعقد من خلال التشابه القائم بين الأسد وبدر ، والتسوية بينهما فى الشجاعة والجرأة ، ثم شبه متن الأسد بمتن بدر وساعده بساعده فى القوة والصلابة والمشبه إنما تبين بالمشبه به فى قوله :

أَسَـدٌ يَـرى عُضْـوِيْه فِيـكَ كَلِيهِمَـا ... مَتْنَـا أَزَلّ وَسَـاعِدًا مَفْتُـولاَ

ثم يصور المعركة التى قامت بين بدر والأسد والتى استسلم فيها الأسد مجدولا مصروعا ، ويصف تهيأ الأسد ، واستعداده ، واستجماعه لكل طاقته وقوته حتى يثب على الممدوح ويقضى عليه ، فهو يجمع أعضاءه ويفتل عضلاته ، ويقرب بين جميع أجزاء جسمه ، ليثب على بدر وثبة هائلة . تكون فيها نهايته . والقضاء عليه حتى صار من شدة تجميع عضلاته كأن العرض منه على قدر الطول فى قوله :

مَـازَال يَجْمَـعُ نَفْسَـه فِـى زَوره ... حَتَّـى حَسِـبتَ العَـرْض مِنْـه الطُّـولاَ

والتشبيه يقوم بين تشبيه عرض الأسد ، بعد استجماعه لعضلاته وتهيئه للوثوب عليه بالطول فى المساحة والقدر وشرح طرفى الصورة على هذا النحو يجعل لها مذاقا خاصا حيث ترتبط بالسياق من ناحية ، ولا تبتعد عن غرض الشاعر فى مدحه لبدر الذى استعد له الأسد كل هذا الاستعداد واستثمر ما فى أعضاء جسمه من ليونة جعلته يتجمع ليصل إلى هدفه بعد أن صار العرض منه على قدر الطول ، ثم انظر إلى استكمال الصورة وتأمل هذا الأسد فى زمجرته الراعدة وغضبته المهولة وهو يدق بصدره الأرض (كناية عن شدة الغضب والثورة) دقا عنيفا كأنه يبتغى خرقها والوصول إلى عمقها .

أرأيت إلى صورة الغضب مثلا فى هذا العنف البادى فى ضرب الحجارة ودقها بصدر الأسد فى قوله :

وَيَــدُقّ بالصّــدْر الحَجَــار كأنّــه يَبْغى إلَى مـا فِـى الْحَضِـيضِ سَـبيلاَ

والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الأسد فى غضبته وهو يحفر الأرض بصدره بعنف وشدة وهو يريد أن يخرقها ويصل إلى عمقها ووجه الشبه هو الوصول إلى الغاية فى كل :

ثم يبين الشاعر أن الأسد يبدو وكأنه قد أصابه خداع العين فلم يعد يرى الأشياء فى صورتها الحقيقية ، وحجمها الطبيعى . لقد أصيب بعمى الألوان ، واختلطت حقائق الأشياء أمام ناظريه فأصبح لا يبصر الخطب الجليل جليلا .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه الأسد فى غضبته ، وإقدامه ، وعدم تقديره لقوة الممدوح ولا لجلال بأسه وشدته بمن خدعته عينه فلم يعد يبصر الأشياء بصورتها الأصلية ووجه الشبه هو الخيبة وسوء المصير فى كل . ولاحظ أن المتنبى يقدم شعره بين يدى ممدوحه بدر ولما صور الأسد فى صورته الراعدة المتوثبة كان من الأوفق أن يصور أن الأسد مخدوع . إذ إن ممدوحه أقوى منه بأسا ، وأشد تنكيلا فكان هذا التشبيه منسجما مع الغرض العام ، ومتوافقا معه كما كان بمثابة الاعتذار للمدوح .

ثم يصف الأسد بأنه كريم لأنه لم يفر من الميدان وآثر أن يمضى فى الطريق إلى نهايته ، فاستكباره قد صور له الكثير كالقليل فى قوله :

أَنـفُ الكَـريمِ مـن الدّنِيـةُ تَـارِكٌ فـي عَينـهِ العَـدَد الكَثِيـرَ قَلِـيلا
والعَـار مُضّـاضٌ ولَـيسَ بخَـائفٍ مِـنْ حَتْفِـه مَـن خَـاف مِمَّـا قَـيلاً

فهو يعتذر للأسد ، ويبين أنه لم يقبل بالدنية ويهرب ، لأن عزته تركت الكثير فى عينه كالقليل ، والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الكثير فى عين الأسد بالقليل فى العدد .

كما يشبه العار بالنار المحرقة ويحذف المشبه به ويرمز إليه بشيء من لوازمه (مضاض) على سبيل الاستعارة المكنية . فمن خاف العار لم يخف من الموت والحتف الذى آثرهما حين وثب على الممدوح الذى كافحه فى قوة إلى أن خارت قوة الأسد فاستسلم مقتولا ، وخر صريعا فى قوله :

خَذَلَتْـهُ قُوَّتُـهُ وَقْـد كَافَحْتُـه فاسْتَنَصَـر التَسـلِيمَ والتَّجْـديلاَ
قَبَضَـتْ مَنِيَّتُـهُ يَدَيْـهُ وَعُنْقَـهُ فَكَأنَّمَـا صَـادَفْتُه مَغْلُـولاَ

والمتنبى يصور نهاية الأسد فى سخرية هازئة على يد الممدوح والتشبيه يقوم من خلال تشبيه انهيار الأسد أمام بدر بعد أن قبض بيديه على عنقه فى قوة لم تجد معها مقاومة فاستسلم لقضاء الموت مع أنه حر طليق بانهياره واستسلامه حين يكون مقيدا مغلولا والصورة كناية عن قوة الممدوح التى يستوى أمامها الصعب والسهل .

تصوير الفرس :

الفرس أداة من أدوات الجيش ، وآلة من الآت الحرب والقتال ، والمتنبى يجد متعته بين طعن القنا ، وخفق البنود . فهو عاشق للحرب يغشى أهوالها ومخاطرها ، ويسجل وقائعها وانتصاراتها ، والخيول لا تنفصل عن ركبانها وفرسانها ، فهى ملازمة لهم . لا تفارقهم ولا يفارقونها . لذا تغنى بها الرجل فى شعره ، وشدا بها على وتره . ورأى فى ظهرها أعز مكان فى الدنيا ، ولمس فيها ما يلمس فى الصديق من الوفاء فقال[1] :

---

(١) الديوان ١/٢٨٠ .

وما الخَيْلُ إلا كالصَّدِيقِ قَلِيلَةٌ وإنْ كَثُرتْ فِي عَيْنِ مَن لا يجرّبُ

والرجل ينظر إلى الخيل من زاوية معينة هى الأصالة وتتجلى فيها حين تلحق فرسانها بطلباتهم . فلا تكبوا ، أو تصاب بالحران ، والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه الخيل الأصيلة بالصديق الوفى فى وجه شبه هو الندرة والقلة . وقوله (وإن كثرت فى عين من لا يجرب) كوصف للمشبه يؤكد أن المقصود بالتشبيه الخيل الأصيلة ولا يتعرف عليها غير فرسانها ورجالها ، وإلا فهى كجنس من الكثرة بحيث لا يحصيها العد .

والتشبيه بصورته تلك يعكس معاناة الشاعر النفسية ويكنى عن توتره الحاد من خلال فقده للصديق الأمثل الذى ينشده ، وخيبة أمله فى أصدقائه .

وقد يشبه الفرس وفى جبهته الغرة بالليل فى صفحته كوكب متألق فى قوله[1]:

وَعَيْنِي إلى أُذْنَي أغرّ كَأَنَّهُ مِنِ اللّيلِ باقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ

فعينه ترقب أذن الفرس ، وتعلم منها أحوال الطريق . ويشبه هيئة الفرس وفى جبهتها الغرة بهيئة الليل يتألق فى صفحته كوكب . ووجه الشبه هو هيئة جسم أسود به دائرة بيضاء صغيرة .

وقد يجسم ظلام الليل ، ويجعل من الفرس سيفا يشقه ويقطعه بعد أن وصفه بسعة الجلد ليكنى به عن شدة العدو فى قوله بعد البيت السابق :

لَه فَضْلَةٌ عَنْ جِسْمِه فِي إهَابِه تجيء عَلَى صَدْرٍ رحِيبٍ وتَذْهَبُ
شَقَقْتُ بِهِ الظَّلْمَاءَ أُذْنِي عِنانَه فَيَطْغَى وأُرْخِيه مِرَاراً فَيَلْعَبُ

فالفرس جلده واسع . وهذا كناية عن شدة العدو ، لأن سعة خطوه على قدر سعة إهابه ، هذا فى البيت الأول .

وفى البيت الثانى يجسد الظلماء حين يتخيلها جسما صلبا ، ويجعل من الفرس آلة حادة كالسيف تشق ، وتقطع ويحذف المشبه به ويرمز إليه بما هو من لوازمه وتوابعه كالشق ، القطع .

---

(١) الديوان ١/٢٧٩ .

كما يصور حركة أعضاء الفرس مستعينا بالتصوير التشبيهى فى قوله[1] :

تَتَثَنَّـى عَلَـى قَـدْرِ الطِّعَـانِ كأنمـا مَفَاصِـلُها تَحْـتَ الرِّمـاحَ مَـراوِدُ

فأعضاء الفرس مرنة لينة تتناسب مع موقف الكر والفر فتثنى وتميل مع الرمح كما يميل ، وتأخذ الوضع الملائم فى وقت الضرب والطعان . فيشبه ميلها بميل الرمح فى القدر والمسافة ، كما يشبه مفاصلها فى حرية حركتها ، وليونتها واستدارتها عند الطعان بمسمار المرود يدور مع حركته حيث يدور . ووجه الشبه هو سرعة الحركة ، وخفتها ، واستدارتها .

وقد يرى فى الخيل قدرة على المناورة ، وتحمل الجوع ، والصبر على المشقات فيصور ذلك من خلال العلاقة التلازمية بين الفرس وفارسها فى قوله[2]:

عَلَـى كُـلِّ طـاوٍ تَحْـتَ طـاوٍ كأنَّـهُ مِنَ الدَّمِ يسْقَى أو مِنَ اللَّحم يُطْعَمُ

لَهَـا فِـي الْـوَغَى زِيّ الفـوارسِ فَوْقَهَـا فَكُـلّ حِصَـانٍ دَارِعٌ مُتَلَـثِّمُ

يتحدث عن العلاقة التلازمية بين الفارس فى الميدان ، وفرسه التى يمتطيها . فالفارس طاو ضامر ، والفرس طيا قد أضمرهما الجوع بسبب خوضهما معا للمعارك التى لا تترك لها وقتا للطعام والشراب فكأنهما يتغذيان من لحمهما ويسقيان من دمائهما . وفى ذلك ما يرمز إلى أنهما معا يسعيان إلى معالى الأمور وينصرفان إلى الغاية النبيلة ، فالفرس كالفارس فى هذا المجال .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه الفرس بمن يطعم من لحمه ، ويشرب من دمه فى الضمور والهزال ، وفى البيت الثانى يؤكد هذه العلاقة التلازمية بين الخيل وراكبها ، فالخيل لها زى الفوارس تلبسها فى المعارك وتتزيا بها . حتى لكأن كل حصان كالفارس الدارع . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه كل حصان بالفارس فى تدرعه وتلثمه .

وقد يتوسل بالتشبيه ليوضح الكفاءة القتالية للخيل فى الميدان فيقول[3]:

تُبَـارِى نُجُـومَ القَـذْفِ فـى كُـلِّ لَيْلَـةٍ نجـومٌ لَـهُ مِـنْهُنَّ وَرْدٌ وأَدْهَـمُ

---

(١) الديوان ١/٢٧٠ .

(٢) المرجع السابق ٣/٣٥٩ .

(٣) المرجع السابق ٣/٣٥٣ .

يَطَأنَ مِنَ الأبْطَالَ مَنْ لاَحَمَلْنَه ومن قِصَدِ المُرَّانِ مَالاَ يَقَوَّمُ
فَهُنَّ مع السِّيدَانِ فى البَّر عُسَّلٌ وهن مع النينان فى المَاء عُومُ
وهن مع الغزلان فى الوادكمنٌ وَهُنَّ مَع العِقْبَانِ فِي النَّيق حُوَّمُ

وأنت تحس قوة الانقضاض والصعق ، فى هذه الخيل من خلال استعارة النجوم التى ترمى بالصواعق ، والشهب لهذه الخيل . ومضاهاتها بنجوم القذف التى ترمى بالصواعق ، وتقذف بالحمم كما أنها تغوص بأقدامها فى جثث الضحايا والقتلى وقطع الرماح المهشمه التى لا تقوم ، وهى من كثرتها نظرا لغزوها المتلاحق المتتابع تزحم البر ، والبحر فى سرعة سيرها وكثرة حركاتها ، وتقطع الفيافى والقفار ، والمياه ، والأنهار ، وكأنها الذئاب فى سرعتها واضطرابها ، والحيتان فى عومها ، وسبحها ثم إنها معلمة مسومة تعرف طريقها التى تحقق به هدفها لا يستعصى عليها السهل ولا الجبل ، فهى تكمن مختفية مع الغزلان فى الأودية وتحلق مع العقبان فى الآفاق حتى تستطيع أن تحقق هدفها ، ويلاحظ أن الصور التشبيهية هنا تقوم على الازدواجية القائمة بين الخيل ورجالها إذ إنها لا تتصرف بمفردها ، ولكن يقودها أبطالها وهى تحتهم تمضى بهم وتشاركهم مشاعرهم ورغباتهم فى هزيمة الأعداء ، وتدميرهم ، وبذلك لا تنفصل الصورة الجزئية عن الصورة الكلية ولا عن الغرض العام فى سياق الكلام ، والتشبيه يتحقق من خلال تلك المضاهاة بين تلك الخيل فى قوة انقضاضها على خصمها ، وسرعة حركتها ، ورفعة شأنها ، وتلألئها وبين نجوم القذف التى ترسل بشهبها الحارقة ، وقذائفها الثاقبة إلى كل شيطان مارد ، ووجه الشبه هو سرعة الانقضاض والتلألؤ ، ويلاحظ أن الخيل يمتطيها فرسانها ، وأن الأسنة تلمع ، والأسلحة تبرق ، وأنها تتهاوى على الرقاب . فاصلة لها عن الأجساد فى سرعة . مما يجعل بين الطرف الأول فى الصورة ـ الخيل بما عليها ـ والطرف الثانى ـ نجوم القذف ـ توازنا فى المساحة الضوئية والحركية . إذ إن الشهب الثواقب تلمع ، وتخترق .

وتتهاوى على مردة الشياطين ، وحركتها المستطيلة فى لمعانها ووميضها حين تلاحق من يخترق السمع هى حركة تلك السيوف تحرك بأيدى الأبطال من فوق

ظهور تلك الجياد . وهكذا تأخذ الصورة البعد الأمثل فى أداء الدور من خلال الإطار الذى وردت فيه . وانظر كيف يحتد خيال الشاعر وينشط فيجعل الخيل هى التى تبارى نجوم القذف فى كل ما ألمحت إليه .

ثم يشبه الخيل فى كثرتها ، وسرعة عدوها ، ونشاط حركتها ، فى البر بالذئب كما يشبهها أيضا وهى تجتاز النهر إلى عدوها فتسبح فيه عائمة بالحوت فى ذلك فى قوله[1] :

فَهُنَّ مع السِّيدَانِ فى البَّر عُسَّلٌ وهن مع النينان فى المَاء عُومُ

والتشبيه بالذئب والحوت فيما سبق لا يتوقف عند الحدود الشكلية ، ولكنه يرمز إلى عظمة الممدوح ويكنى عن قوته من خلال عظمة تلك الخيل المدربة المعلمة فسيف الدولة قوى الإرادة ، نافذ المشيئة لا يصعب عليه شىء ، ولا تقف أمام رغبته فى الوصول إلى خصمه عقبة ، لا فى البر ، ولا فى البحر ، وجنوده لا تعمل بهذه الكفاءة إلا من خلال اختياره عنصرها ، ونقاء سلالتها وأصالتها ، ثم الجهد المبذول معها فى التدريب والتعليم .

وفى البيت الرابع :

وهن مع الغزلان فى الواد كمن وَهُنَّ مَع العِقْبَانِ فِي النِّيق حُوَّمُ

يصور الخيل وهى تظهر وتختفى على حسب الظروف التى أمامها فى مواطن القتال فيشبهها وهى تأخذ أهبتها للانقضاض واختفائها انتظارا للفرصة المواتية حتى تفاجئ الخصم ، بالغزلان أثناء اختفائه بكياسة فى الكمون والاختفاء . كما يشبهها حين تصعد إلى قمم الجبال ، وتقتحم على الأعداء حصونهم بالعقبان التى تحوم فى أعلى الجبال . ووجه الشبه هو عدم المانع الذى يحول بينها وبين ما تريد . والتشبيه فى صورته تلك يقوى الصورة السابقة من حيث تأكيد قدرة الممدوح وعدم تعذر شىء عليه يستوى عنده في ذلك السهل والجبل ، والمنخفض ، والمرتفع .

---

(١) الديوان ٣/٣٥٣ .

كما قد تصعد درجة إحساس الشاعر بسرعة الخيل فيشبه بها السهام كما يشير إلى سرعة سيرها أيضا ، ويقرنها وعليها القنا مرتفعة بتشوال العقرب لذيلها ورفعها فى قوله[1] :

رَمَى الدَّرْبَ بِالجُرْدِ الجِيَادِ إلى العِدا وَمـــاعلمِوا أنّ السِّـــهامَ خُيـــولُ

شَـــوَائِلَ تَشْـــوالَ العقَـــارِبِ بالقَنـــا لَهَـــا مَـــرَحٌ مـــن تَحْتِـــه وصَـــهِيلُ

يصف الممدوح بالقوة والشجاعة حين رمى أعداءه فى الدرب بكتائب خيله الجرد .

وفى التعبير (بالرمى) وتعلق الجار والمجرور (بالجرد) بالفعل (رمى) ما يفيد أن المرمى به هو الجرد الجياد بلغت من الكثرة الكثيرة حدا كبيرا وأن تحقق الإصابة بالرمى بها أمر مؤكد وثابت ، وفى هذه الجملة التى تحقق التشبيه ، وتفيد نفى العلم عنهم سخرية مرة ، وتهكم لاذع ، بهؤلاء الذين ما دروا وما علموا أن السهام كخيول الممدوح فى سرعتها ، ووصولها إلى غرضها ، وتحقيق هدفها . وفى ذلك تغفيل لهم أى تغفيل . وواضح أن التشبيه يقوم من خلال تشبيه السهام بخيول سيف الدولة فى السرعة والإصابة وقد يرى أن هذا جاء مقلوبا ، لأن الأقل فى الصفة يشبه بالأكثر فيها ، وسرعة السهام أكثر من سرعة الخيول ، فالتشبيه جاء معكوساً لتحقيق المبالغة فى وصف خيل سيف الدولة بشدة السرعة . وفى رأيى أن الحكم بالتعميم على صور ما يسمى بالتشبيه المعكوس على هذا النحو يحتاج إلى تمهل ومراجعة . فالشاعر يتحدث عن سرعة الخيل ، وقوة انقضاضها ، وإصابتها لهدفها فى سرعة خاطفة وانفعاله بالتجربة الشعورية التى تجمجم بداخله من خلال العناصر التى ينبض بها وجدانه وتتزاحم فى صدره فى الصورة الكلية التى تمثل صورة التشبيه الموجودة هنا جزئية من جزئياتها ، تجعله يسوى فى نفسه تشبيها ثم يعكسه إن درجة إحساس الشاعر بسرعة الخيول يتصعد عنده إلى حد لا يرى معه غير تلك السرعة التى يريد تصويرها . وها قد فعل . فصورها على هذا النحو على أن الاهتداء إلى نفس الشاعر ، ومحاولة الوصول إلى استكناه عمقها أمر ضرورى فى فهم الصورة الشعرية وتحقيق غرض الشاعر .

---

(١) الديوان ٣/٩٩ .

شَـوَائِلَ تَشْـوالَ العقَـارِبِ بالقَنـا لَهَـا مِـرَحُ مـن تَحْتِـه وصَـهِيلُ

والتشبيه فى البيت الثانى :

شـوائل تشـوال العقـارب بالقنـا لهـا مـرح مـن تحتـه وصـهيل

وتحقق من خلال تشبيه (القنا) مرتفعة على الخيل بأذناب العقارب إذا رفعتها ووجه الشبه هو الشكل والصورة . (والشوائل) المرتفعات و(بالقنا) متعلق بها و(تشوال) مفعول مطلق . والعامل فيه (شوائل) وصورة التشبيه (شوائل كتشوال) بعد تقدير الأداة وأنت تحس باللسان وهو يكاد يتعثر فى الطريق من أثر الصعوبة حين ينطق (بشوائل تشوال) تلك ولن ينهض لها بالشفاعة أنها جاءت بصدد التعبير عن السرعة التى تظهر فى الخيل الأصيلة حين ترفع ذيلها فى الجرى ، ولا ما يدل على مرحها ونشاطها ، وفرحها بالسرعة والانقاض ، وعدم الرهبة من الموقف ، ثم من صهيلها الذى يؤكد الفرح والحماس للموقف . والذى يتخيل معه أنها فى حفل سباق لا فى مجال نزال . . والخيل فى خيال الشاعر تكتسب صفات الشخص التى تلحق به . فإذا كانت هذه هى خيل سيف الدولة فى إقدامها وإسراعها وانقضاضها ، فإن الشاعر يتوسل بالصورة البيانية ليصور خيلا من نوع آخر . إنها خيل المهجو الذى أطاح به سيف الدولة ، وألحق به الهزيمة وانظر كيف يصورها التشبيه فى قوله[1] :

فَـأَقْبَلْنَ يَنْحَـزْنَ قُدَّامُـهُ نَـوَافِرَ كالنَّحْـلِ والعَاسِـل

وهى تنفر من خيل سيف الدولة فتفر أمامه ، وينحاز بعضها إلى بعض بنفور النحل أمام العاسل ووجه الشبه هو الهروب والتقوقع والانحياز .

والشاعر يستثمر الشىء الواحد ويوظفه فى الصورة للغرض الذى يرمى إليه .

فكما أن الخيل مثال للنصر . فقد تكون مثالا للهزيمة بحسب أغراض الشعر والارتباط بالسياق والمقام . فالصورة البيانية لا تنفصل عن الغرض الذى سيقت من أجله ، وجيئت للتعبير عنه .

وقد يتوسل بالاستعارة فى تصوير حسن جرى الفرس كما فى قوله[2]:

عَلـى سَـابح مَـوْجَ المَنَايَـا بنَحْـرِهِ غَـدَاةَ كـأنَّ النَّبْـلَ فـي صَـدْرِه وَبْـلُ

---

(١) الديوان ٣/٢٦ .

(٢) المرجع السابق ٣/١٨٦ .

فهو يصف الفرس بالسلاسة والحسن فى جريه فيستعير السبح للجرى فى هذا ويبنى على هذه الاستعارة استعارة أخرى إذ جعل سبحه فى موج المنايا فشبه المنايا بالبحر الذى حذف ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو الموج .

وقد توسل الشاعر بالتشبيه لوصف أحوال الفرس وبعض أعضائه فى أرجوزته التى قال فيها[1] :

كأنّمـا الطُّخْـرُورُ بَـاغِى أبـق ... يَأكُـلُ مِـنْ نَبْـتٍ قَصِـيرٍ لاَصِـقِ

كَقَشْـرِكَ الجِبْـرَ مِـنِ المَهَـارِقِ ... أَرُوْدُهُ مِنْـه بِكَالشُّـوذَانِقِ

يصف الفرس (الطخرور) وهو يبحث عن المرعى ويفتش عنه فى كل مكان نظرا لعدم وجود الأكل ، فهو ينتقل من مكان إلى مكان ، بمن يبحث عن شخص هارب آبق فهو ـ يجد فى طلبه ، والوصول إليه . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه الفرس فى بحثه عن المرعى ، وانتقاله من مكان إلى مكان بالبحث عن شخص هارب يبغى إدراكه ووجه الشبه بين الطرفين كثرة الانتقال من مكان إلى مكان بحثا عن المطلوب .

ثم يتعرض لتشبيه النبات الذى يرعاه الفرس فيشبهه فى قصره ، وقلته والفرس يقتلعه بأسنانه ، ويرعاه . فيأخذ بعضا ويترك بعضا يعود إليه مرة ومرات فى نفس الوقت بالحبر يقشر عن الصحيفة ويمسح فهو يذهب عليه ويجىء بالممحاة فى وجه شبه هو الحركة .

ثم يشبه فرسه مرة أخرى بالشاهين (الشوذانق) وهو الصقر فى الخفة والسرعة . والصورة بدوية جافة . وقافية القاف هنا تشعر بالتعب والقلقلة ، والشدة وإنها لتظهر فى الصورة واضحة من خلال المعاناة التى يلاقيها الفرس فى البحث عن طعامه فى هذا النبات القصير ، ومحاولة رعيه ، واقتلاعه ، ثم قشر الحبر على هذه الصورة .

والهاء فى (أروده) للنبت أى أرود هذا النبت القصير . بمثل الشاهين من هذا

---

(١) الديوان ٢/٣٥٢ .

الحصان ، والضمير فى (منه) لحصانه الذى جرد منه مهرا هو المشبه فى قوله : (أروده منه بكالشوذانق) ثم تابع وصف أعضائه . فهو مطلق اليمنى لا تحجيل فيها فهى تخالف باقى قوائمه . وهو طويل العنق . ضخم الأطراف . عريض الصدر . شريف واسع المنخر ضامر الخصر فى قوله[1] :

١) بِمُطْلَقِ اليُمْنَى طَوِيلِ الفَائِقِ عَبْلِ الشَّوَى مُقَارِبِ المَرافِقِ
٢) رَحْبِ اللَّبَانِ نَائِهَ الطَّرائِقِ ذِى مَنْخِرٍ رَحْبٍ وَاطْلِ لاَحِق
٣) مُحَجَّلِ نَهْدٍ كُمَيتٍ زاهِقِ شَادِخَةٍ غُرَّتُهُ كالشَّارِقِ
٤) كأنّها مِنْ لونه فى بَارِق باقٍ على البُوغَاءِ والشَّقَائِقِ
٥) والأَبْرَدَينِ والهَجِير المَاحِقِ لِلفَارِسِ الرَّاكِضِ منْهُ الوَاثِقِ

ففى البيت الأول : تلمس الكناية عن طول الرقبة فى قوله (طويل الفائق) ذلك أن وصف (الفائق) وهو مفصل الرأس فى العنق . بالطول يستتبع طول العنق ، لأن الفائق إذا طال طالت الرقبة .

وفى البيت الثالث : وصف للفرس بأنه محجل ، تخالف قوائمه باقى جسده فى اللون مرتفع الجسم ، حمرة جسده حمرة متوسطة ، بين السمين والهزول ، ثم يشبه بياض جبهته (الغرة) بضوء الشمس فى البياض والإشراق . ثم يتابع وصف الغرة التى فى جبهته . ويبين أنها بالنسبة لباقى الجسد كالبرق بالنسبة للسحاب ، وأن حصانه صبور على السير فى السهل والحزن والتشبيه ينعقد من خلال تشبيهه غرة الفرس بالبرق ، ولون الفرس بلون السحاب ووجه الشبه فى كل هو اللون .

وفى قوله : باق على البوغاء والشقائق وقوله :

والأَبْرَدَينِ والهَجِير المَاحِقِ لِلفَارِسِ الرَّاكِضِ منْهُ الوَاثِقِ

تكنية عن صبر الفرس وتجلده ، وتحمله للشدائد والمصاعب .

وفى قوله بعد البيت السابق[2] :

خَوْفَ الجَبَانِ فِي فُؤَادِ العَاشِقِ كأنه فى رِيْدِ طورد شاهِقِ

---

(١) الديوان ٢/٣٥٣ .
(٢) المرجع السابق ٢/٣٥٤ .

تصوير للخوف الذى يبعث به هذا الفرس فى قلوب الفرسان الشجعان فالفارس الراكض يخاف منه خوفا كخوف الجبان فى فؤاد العاشق وفى قوله : (كأنه فى ريد طود شاهق) تصوير لضخامة هذا الفرس الذى يشبه الجبل المرتفع العالى وفى التعبير بالجار والمجرور (فى ريد) استعارة تبعية فى الحرف إذ إن الحرف (فى) موضوع للظرفية الحقيقية التى تكون وعاء للمظروف تحتويه بداخلها (وريد الطود) لا يصح أن يكون ظرفا حقيقيا بهذا المفهوم ولذا فإن الحرف (فى) قد تجاوز المعنى الحقيقى إلى معنى آخر مجازى فهو مستعمل فى غير ما وضع له ويمكن إجراء الاستعارة بتشبيه مطلق تلبس مستعلى بمطلق تلبس الظرف بالمظروف بجامع مطلق تلبس شىء بشىء ثم يسرى التشبيه من كليات المشبه إلى جزئى من أجزائه ومن كليات المشبه به إلى جزئى من أجزائه ، على سبيل الاستعارة التصريحيه التبعية ثم يتتابع الحديث عن الفرس فيصف سرعته ويبين أنها تسبق الصوت ، وهو من شدة وثبه ، وقوة عدوه يؤثر فى الصخر آثارا كآثار الحلى إذا قلع من المناطق وذلك فى قوله :

يَشْأَى إلَى المِسْمَع صَوت النَّاطق ... لَو سَابَقَ الشَّمسْ مِنَ المشَارِق

جَاءَ إلى الغَرب مَجِيء السَّابِقَ ... يَتْرك فى حِجَارةِ الأَبَارِقِ

آثارَ قَلْعِ الحَلي فِي المَنَاطِق ... مشياً وإنْ يعد كالخَنَادِقِ

فمشيه على الصخر والحجارة يترك فيها أثرا كأثر قلع الحلى فى المناطق وإن عاد مسرعا فإن آثار عدوه تترك فى الحجارة أثرا كالخنادق والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه أثر مشيه على الحجارة بأثر قلع الحلى من سيور المنطقة (وهى ما ينتطق به) كما يشبه الأثر الذى يتركه عدوه على الحجارة بالخنادق ووجه الشبه فى التشبيه هو الشكل على ما به من ضيق فى المشى وسعة فى العدو .

وأنت ترى أن أبا الطيب ينحت فى هذا الوصف من صخر ، فألفاظه بدوية جافة تسرى فيها روحها

كما يصور التشبيه فم الفرس فى قوله[1] :

إذَا اللّجَام جَاءهُ لطَارِقٍ ... شَحَا لَهُ شَحْو الغُراب النَّاعِقِ

---

(١) الديوان ٢/٣٥٥ .

وشحا بمعنى : فتح فاه . والناعق : صوت الغراب والشاعر يتحدث عن هذا الحصان ويبين أنه مع قوته وشدته لا يمتنع ولا يتأبى على اللجام ، ويشبه فمه حين يفتحه للبسه بفم الغراب المفتوح ووجه الشبه هو السعة .

كما يصف ناهِقَيْ الفرس . وهما عظمان شاخصان فى مجرى الدمع من ذوى الحوافر فيقول[1] :

كَأَنَّمَـا الجِلْـدُ لِعُـرِي النَّـاهِقِ مُنْحَـدِرٌ عَـنْ سِـيتَى جُلاهِـقِ

وسيتا الفرس : جانباه . والجلاهق . البندق . وإذا كانت النواهق عارية لا شحم عليها كان ذلك مدحا للفرس ، وإشادة به .

والشاعر يصفه بالعرى من اللحم ، وبرقة الجلد المنحدر والمشدود عن جانبى قوس البندق . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه رقة جلده ، وإحكامه على ناهقه بشدة متن قوس البندق ووجه الشبه هو الشدة والإحكام والصورة بدوية تطالع أثر البداوة فيها . من الناهق . جلاهق سيتى . كما لا يغيب طبيعة هذا التشبيه الذى يشبه فيه الجلد لرقته وعدم وجود الشحم ، واللحم فيه فلا يترهل ويكون مشدودا محكما على عظمى الناهق . بإحكام متن قوس البندق .

ومرة أخرى أقول : إن البيداء فى هذه الصور هى مدرسة الشاعر الأولى التى غذت بمناظرها خياله ، وأطلقت فى التعبير عنها عقال بيانه .

وقد يتوسل الشاعر بالصورة البيانية ليصور التعاطف بين الخيل والممدوح كما فى قوله[2] :

رَجَوْنَـا الـذَى يَرْجُـون فـى كُـلِّ جَنَّـةٍ بِأَرْجَـان حتّـى مَـا يَئِسْـنَا مـن الخُلْـدِ

تَعَـرَّضُ للـزُّوَّارِ أَعْنَـاقُ خَيْلِـه تَعـرُّض وحْـشٍ خَائِفَـاتٍ مـن الطَّـرْد

فهى قد أحبته ، وألفته فلم تعد تبغى به بديلا حتى ولو كانت وهى معه مرهقة متعبة بسبب أسفاره المتلاحقة ، وغزواته المتتابعة . فهى تعطى جانبها للزوار مائلة عنهم ، مشيحة بوجهها عن وجوههم خشية أن يهبها لهم . فهو معطاء كريم ، وهى لا تريد أن تفارقه وتحليل البيت على هذا النحو يبين أنه كناية عن كرمه وحب الخيل له .

---

(١) الديوان ٢/٣٥٥ . (٢) المرجع السابق ٢/٦٤ .

وينعقد التشبيه فيه من خلال تشبيه ازورار الخيل ، ونفورها ، وميلها إلى جانب بعيد عن مواجهة زوار الممدوح بنفور الوحش وخوفه من الصياد الذى يطارده . ووجه الشبه هو الازورار ، وعدم المواجهة .

وأنت ترى مشاعر الألفة تفيض بها الصورة من خلال هذا الازورار من الخيل . ثم تصوير هذا الازورار ، والخوف من المفارقة ، بخوف الوحش المطارد فهو يخشى أن يقع فى حبائل صياده . إن خيل ابن العميد هنا رقيقة المشاعر نقية الوجدان مرهفة الحس لماحة ذكية ، إنها تحس وتدرك كما يحس الإنسان ويدرك وهى تنفعل بالأحاسيس تماما كما ينفعل بها الإنسان .

لقد كانت الخيل تتوجس خيفة من فراق صاحبها . وجاءت الصورة البيانية لتحكى تلك المشاعر النفسية المضطربة المذعورة ، وكان الوحش المطارد رمزا لتصوير تلك الهواجس الداخلية وهى تمور فى نفس الخيل ، وفى جواها إننى لا أتجاوز الرؤية الشعرية إذا قلت إن التشبيه استطاع أن يحكى الحالة النفسية لتلك الجياد التى أعطت قلبها لرجلها ، ولا تريد غيره .

وخيل الممدوح التى تحبه ، لا تريد مفارقته ليست خيلا مترفة منعمة إنها كصاحبها تحب المعارك ، وتسعى إليها ، وتتحمل بأسها وشدتها ، بل إنها ترد إليها وهى ظامئة إلى الموت تبحث عنه وترمى بنفسها بين براثنه ومخالبه فيقول[1]:

وَتَلْقَى نَوَاصِيها المَنَايَا مُشِيحَةً ورودَ قَطَا صُمٍّ تَشَايَحْنَ فِي وِرْدِ

إن الخيل تسرع إلى المنايا ترد حياضها ، وتنهل مواردها كما ترد القطا منابع الماء فى سرعة . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه إسراع خيل الممدوح إلى مواطن الموت فى أرض المعركة فى لهفة وشوق . بإسراع القطا الصم إلى موارد المياه تريد أن تشرب منها .

وانظر إلى هذا القيد فى المشبه به (صم) والذى يشعرك بمعناه فيدل على أنها صماء لا تسمع شيئا تنشغل به عن الطيران فى سرعة إلى موارد المياه تنهل منها وتعل . . وكيف يعكس هذا القيد فى (المشبه به) دلالته على (المشبه) فيفيد حرص الخيل على تحقيق أقصى قدر من السرعة حتى ولو كانت السرعة المجنونة إلى

---

(١) الديوان ٢/٦٥ .

حياض الموت ، ومعاقرة المنايا ، ولا تنسى أنك أمام خيل قد نفرت منذ قليل من زوار الممدوح نفور الوحش المطارد من الصائد حتى لا تفارقه فالمشاعر بينها وبين رجلها متبادلة فإذا كانت تحرص على الموت بمثل تلك الدرجة فإن صاحبها مقدام جرىء غير هياب ولا وجل .

ومشاعر خيله من مشاعره ، وأحاسيسها من أحاسيسه . وبذلك يخلع التشبيه على الممدوح الصفات التى خلعها على خيله . فالممدوح هو الكفء ، وهو النظير وهو المعادل الموضوعى فى هذا المثال .

وقد يتعرض بالتصوير لوصف عنق الفرس ولينه فى قوله[1] :

تَنْـدَى سَـوَالِفُها إذا اسْتَحْضَـرتَها ... وتَظُـنُّ عَقْـد عَنانِهـا مَحْلُـولا

يصف هذه الخيل بأنها تعرف فارسها فتطاوعه ، وتستسلم له ، وهو حين يركضها فى السير تندى سوالفها من العرق . والسالف : هو صفحة العنق وحين يستحضرها ويجذب عنانها تطاوعه ويلين عنقها حتى لكأنه محلول من غير قيد والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه جذب عنانها ولين عنقها ومطاوعتها ، بالعنان المحلول الذى لا عقد فيه ووجه الشبه هو السهولة واللين وقد يتعرض بالتصوير لبيان سلامة حواس الفرس وقوتها وشدة تأثير أعضائها كما فى قوله[2] :

تَمَاشَـى بأيَـدٍ كُلَّمَـا وَافَـتِ الصَّـفَا ... نَقَشْـنَ بِـه صَـدْر البُـزَاةِ حَوَافِيـا

وَيَنْظُرن مِنْ سودٍ صَوَادِق فى الدّجَى ... يَـرَيْن بَعِيـدَات الشُّـخُوص كَمَـا هِيـا

وتَنْصِـبُ للجِـرْس الخَفِـيِّ سَـوَامِعاً ... يَخَلْـنَ مَنَاجَـاةَ الضَّـمِيرِ تَنَادِيـا

تُجَـاذِبُ فُرْسَـانَ الصَّـبَاحِ أعِنَّـةً ... كَـأَنَّ عَلَـى الأعنـاق مِنْهـا أفاعِيـا

والتشبيه فى البيت الأول يقوم من خلال تشبيه تأثير حوافرها فى الصخر وهى تمشى بتأثير صدر البزاة فى القدر وفى هذا التشبيه (تكنية عن شدة حوافرها وصلابتها) .

وفى البيت الثانى يصف عيونها بقوة الإبصار . وفى قوله : تنظر من سود صوادق ، تكنية عن موصوف وهو العيون ، فهى تبصر بعيونها السود الصوادق التى لا تخطىء

---

(١) الديوان ٣/٤٢١ .

(٢) المرجع السابق ٤/٢٨٥ ، ٢٨٦ .

النظر أبدا، فترى الأشياء البعيدة بحجمها الطبيعى من غير أن يغيب عنها منها شىء. كأنها أمامها وقريبة منها . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه رؤيتها للشخص البعيد برؤيتها للشخص القريب ووجه الشبه هو التسوية وعدم الفرق بين الرؤيتين .

وفى البيت الثالث يتحدث عن سلامة آذانها وقدرتها الرهيبة على السمع فإنها لا تتوقف فى سماعها عند سماعها للأصوات المسموعة بل إنها لتتجاوز ذلك إلى أعماق النفس ، فتسمع مناجاة الضمير وما يهمس به ، وكأنه فى آذانها نداء بصوت عال مرتفع والتشبيه يقوم من خلال تصوير القدرة الرهيبة على السمع . . وتشبيه مناجاة الضمير فى آذانها بصوت النداء العالى فى الوضوح والتميز . وانظر إلى الشاعر فى البيت الرابع وهو يفصح عما فى نفسه حين يصف نفسه ، ومن معه من خلال هذه الفرس التى تجاذب فرسانها أعنتها لقوتها ونشاطها ، وهم يمتطونها فى الصباح وقت الإغارة ثم يشبه أعنتها الطويلة الممتدة على أعناقها بالأفاعى أو الحيات فى الشكل والصورة . ولك أن تتصور مدى وفرة النشاط ، وقوة الحركة وعنفها وتدافعها من خلال الصورة التشبيهية وإلى أى مدى يكون هذا الشد والتجاذب وهى مندفعة وكأن فرسانها يحاولون الإبطاء بها نوعا ما من خلال الأعنة فتجاذبهم فيها حتى لكأن الأعنة على رقبتها حيات تلهبها وتثيرها فتجد فى سرعتها ونشاطها .

واستمع إلى هذا التشبيه الذى يكنى عن كثرة القتلى إلى الحد الذى جعل الخيل تبطئ فى سيرها ، ولا تستطيع الاندفاع فى سرعتها ، لأنها تتعثر برؤس الضحايا كما يتعثر الناطق بحرف التاء فى نطقه فيقول[1] :

يَتَعثَّرْنَ بالرءوسِ كَما مَرّ بِتا آتِ نُطْقِهِ التَّمْتَامُ

فتعثر الخيل برءوس الصرعى الكثيرة تجعلها تبطئ ولا تسرع . والتمتام الذى يتوقف فى حال نطقه للتاء برهة ولا يستطيع الانطلاق بكلام فيه حرف التاء .

والتشبيه يقوم من خلال تشبيه تعثر الخيل برءوس القتلى فتبطئ فى مشيها ولا تسرع ويمنعها العثار من العدو منعا شديدا يتعثر التمتام فى نطقه بحرف التاء الذى يمنعه من الانطلاق بالكلام فى سرعة ووجه الشبه هو البطء فى كل .

---

(١) الديوان ٤/٩٨ .

وقد تأتى الخيل ويكنى بها عن القوة كما فى قوله[1] :

كلمـــا أعْجلـــوا النـــذير مَسِـــيرًا ... أعْجَلَـــتْهُم جيِـــادُهُ الإعْجَـــالاَ

فَـــاَتَتْهُم خَـــوارِقُ الأَرْضِ مـــا تَحْـــ ... ـــــتمل إلاّ الحَديـــدَ والأبطَـــالاَ

خَافِيـات الألـوانِ قَـدْ نَسَـجَ النّقْـع ... عليهـــــا برقعـــــا وَجِـــــلاَلاَ

فالخيل رمز للإعداد الجيد وكناية عن القوة والاستعداد للعدو استعدادا طيبا وجملة الحصر (ما تحمل إلا الحديد والأبطالا) لتأكيد هذه القوة وخوارق : بمعنى قواطع . فهى تخرق الأرض أى تجوبها وتقطعها ففيها استعارة حيث شبه القطع بالخرق بجامع الوصول إلى الهدف وحذف المشبه واشتق من الخرق بمعنى القطع خوارق بمعنى قواطع وخيل المعركة تثير النقع الكثيف من حولها وهى فى طريقها مسرعة تقطع الأرض إلى مواطن النزال فتختفى فيه من كثافته حتى لكأنه قد نسج عليها البراقع والجلال . وفى البيت استعارة حيث شبه الغبار الذى يثيره ركضها ، ويبعثه سيرها . بالنسيج بجامع الستر والإخفاء .

وقد يخاطب الخيل بعد أن يفرغ عليها الوعى والعقل ويجعل منها شخصا يعقل ويعرف ويخاطب ويتخذ من مخاطبته لها رمزا لقوة إرادته كقوله فى مدح ابن العميد[2] :

أرْجَـــان أيَّتُهـــا الجِيـــادَ فإنَّـــهُ ... عَزْمـى الـذى يَـذِرُ الوَشِـيحَ مُكَسَّـرا

لَـوْ كُنْـتُ أفعـل مـا اشْـتَهيْتُ فَعالَـهُ ... مَاشَـقَّ كُوكُبـكَ العجـاج الأكْـدَرا

فقد أضفى الشاعر على الخيل صفة العقل ، والوعى وادعى لها ذلك وخاطبها خطاب الإنسان العاقل المدرك الواعى وجعلها تتحول أمام ناظريه إلى إنسان يشاركه مشاعره وأحاسيسه ، فى شخوص حية واعية ينبض قلبها بما ينبض به قلبه وتتردد نفس الأحاسيس والانفعالات فى صدرها كما تتردد فى صدره ومن ثَمَّ أجرى خطابه معها على هذا الأساس . فالتشبيه الذى بنيت عليه الاستعارة المكنية هنا قائم على نحو من التخييل والادعاء بتشبيه الخيل بالإنسان العاقل ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو إجراء الخطاب معه ونداءه الخيل رمز

---

(١) الديوان ٣/١٣٥ .

(٢) المرجع السابق ٢/١٦٤ .

لبلوغ الهدف وتحقيق المراد فهى ليست أداة للركوب لا غير ولكنها تدخر لإدراك الحاجة والمغامرة كما فى قوله[1] :

وَمَازِلْتُ أطْوِى القَلْب قَبْلَ اجْتَماعِنا على حاجةٍ بَينْ السَّنابكِ والسُّبْل

فهو يطوى قلبه على زيارة الممدوح قبل أن يتقابل معه ، ويجتمع به وصار الوفاء بما يطويه فى أعماقه حاجة بين سنابك الخيل والطرق وقوله (على حاجة بين السنابك والسُّبلِ) تكنية عن السير إلى الممدوح ، وشد الرحال إليه والخيل تستخدم للوصول إلى العدو وللفوز على الأعداء ، ولذا تقترن بالمعارك القتالية ، وبالمناورة الحربية ، واجتيازها لما يصعب على غيرها من الحيوانات الأخرى فهى رمز لتحقيق الأمل ، وللوصول إلى الظفر فيقول[2] :

فَلاَ هَجَمْتَ بِهَا إلاّ عَلَى ظَفَرٍ ولا وَصَلْتَ بِهَا إلاّ إلى أمَلِ

يدعو لممدوحه أن يحقق بخيله ما يعشقه ويتمناه من الظفر بعدوه ، والوصول إلى أمله . والظفر وهو الفوز يتجسد فيصير محلا للهجوم بالخيل عليه فيشبه الظفر بالهدف الذى يحذف ويرمز إليه بما هو مستتبعاته من الهجوم عليه ويمكن فهم الاستعارة فى الفعل (هجم) فيشبه تحقيق الهدف بالهجوم عليه بجامع الوصول إلى المطلوب وبلوغه ثم يستعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية .

تصوير الناقة

حظيت بقدر غير قليل من التصوير البيانى فى شعر المتنبى ، إذ إنها عند الرجل أداة الوصول ، وحبل النجاة ، وسفينة الصحراء ، ومثال القدرة على التحمل ، ورمز الانتصار فى معترك الحياة والإرادة الإنسانية التى تذلل الصعاب ، ويهون أمامها كل شاق عسير .

وإذا كان الشاعر أخا أسفار ، وجواب فلوات ، فإن الناقة هى الرفيق فى السفر والصاحب فى قطع المهامه والقفار ، ولقد صور سيرها ، ووصفه بالسرعة فى قوله[3] :

---

(١) الديوان ٢٩٣/٣ . (٢) المرجع السابق ٤٢/٣ .

(٣) المرجع السابق ١٩٤/٣ .

نحْـنُ رِكْـبٌ مِلجْـنٍ فـى زِىِّ نـاسٍ فَـوْقَ طَيْـرٍ لَهـا شـخُوصُ الجِمَـال
من بنات الجديل تمشى بنا فى السـ ـبيد مَشْـىَ الأيـام فـى الآجـالِ
كـل هوجـاء للـدَّياميمِ فيهـا أثـرُ النّـارِ فـي سَـلِيطِ الـذُّبَالِ

والمتنبى يتحدث عن الجمال ، وسرعة سيرها ، بعد أن وصف نفسه ومن معه بأنهم من الجن وإن كانوا يتزيون بزى الأناس ، ويصف مقدار سرعة الجمال فيبين أنها كطيران الطير . ففى البيت استعارة الطير للجمال استعارة أصلية بجامع السرعة . والشاعر يقدم شعره بين يدى ممدوحه ويوظف الصورة الاستعارية لأداء مشاعر الحب الذى يعتمل فى صدره . ذلك أن شوقه إلى لقاء الممدوح يحثه حثا ، ويدفعه دفعا إلى أن يطير إليه طيرانا لا أن يسير إليه فى أناة وتمهل ، هذا ما أبانت عنه الصورة .

وفى البيت الثانى يصور مشى الجمال فى الفلوات والمهامه ومن خلال هذا التصوير يكون الرمز لرسالة الناقة فى الحياة ، وتحملها لقسوة الصحراء ، والصبر على الشدائد ، ويبين أن الجمال التى ركبها الشاعر ومن معه للوصول بها إلى الممدوح كريمة الأصل (من بنات الجديل) ثم يشبه مشيها فى الفلوات والصحراء بمشى الأيام فى الآجال ، ووجه الشبه هو الإفناء والانتهاء .

وفى البيت الثالث يصور أثر المداومة والاستمرار فى الرحلة وصعوبتها على الناقة حتى فنى لحمها ، وذاب شحمها بسبب السرعة فى الوصول إلى الممدوح .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه تأثير السير فى الناقة بإذابة شحمها ، وإفناء لحمها بتأثير النار فى دهن الفتيلة ووجه الشبه هو الهزال والتلاشى ولقد عبر الشاعر عن معنى هذه الصورة ، وهو أثر السير فى هزال الناقة فى تركيب ثقيل بغيض يتعثر اللسان مع النطق به من خلال التكرار السقيم فى لفظ(الإسآد)ومشتقاته وما أدى إليه من إغلاق المعنى وإغرابه ، والتواء فى أدائه وذلك فى قول الشاعر[1]:

شِـيَم اللَّيـالِى أَنْ تُشَـكِّك نَـاقَتِى صَـدْرِى بِهَـا أَفْضَـى أَمِ البَيْـداءُ

---

(١) الديوان ١/١٦ ، ١٧ .

فَتِيــتُ تُسْــئِدُ مُسْــئِدًا فــى نِيّهــا إســآدَهَا فــى المَهْمَــه الإِنْضَــاءُ
أَنْســاعُها ممغوطــة ، وَخِفَافهَــا مَنْكوحــة، وطَرِيقُهــا عــذْرَاءُ

ففى البيت الأول تلمح الاستعارة المكنية على أثر ما أثارته الليالى من شكوك فى صدر الناقة جعلتها تتوقف متسائلة هل صدر الشاعر ، وما به همة لاحد لمنتهاها أكثر رحابة ، وأشد اتساعا أم الصحراء الممتدة الشاسعة التى لا تنتهى؟

وانظر إلى صورة البيت الثانى و(الإسآد) هو السير ليلا . والنى : الشحم و(الإنْضَاء) هو الهزال . والشاعر يريد أن يقول : إن هذه الناقة تبيت تسئد أى تسير (مسئدا) سائرا الهزال فى شحمها كما تسير هى فى المهمه الأرض الواسعة والتشبيه يقوم من خلال تشبيه سير الهزال فى شحم الناقة وهو المصدر المحذوف بسيرها هى فى الأرض الواسعة والمشبه به يبين نوع المشبه ووجه الشبه هو السرعة فى قطع الشيء .

والتشبيه يمثل وعورة الرحلة ، وصعوبة الطريق وطوله ، ويحكى صبر الناقة . وصبرها من صبر الشاعر الذى تحملت معه هذه القسوة من أجل الممدوح ، ولذا جاءت الأوصاف اللاحقة بالمشبة به فى البيت الثالث لتبين آلام الناقة فى سيرها وما لحقها بسبب الطريق البكر غير الممهدة من ضنى وعذاب عاشهما الشاعر ، وقاسمته الناقة فى كل ذلك وفى (أَنْسَاعُها مَمغُوطةٌ) كناية عن عظم بطن الناقة . وفى (خفافها منكوحة) كناية عن وعورة الطريق وفى (منكوحة) استعارة تبعية حيث شبه إدماء الحصى لخفافها بالنكاح بجامع التأثير فى كل وحذف المشبه وتنوسى التشبيه واشتق من النكاح منكوحة بمعنى مدمية على سبيل الاستعارة التبعية . ولعلك تشعر أن الشاعر قد أساء إلى ممدوحه من حيث أراد أن يحسن إليه إذ جعل منه نكرة من النكرات غير متعالم ، ولا مشهور حين جعل الطريق إليه غير ممهدة ولا مسلوكة الأمر الذى يوصل إلى أنه رجل لا تَخِف إليه الركبان لأنه لا يعرفه أحد . فهو خامل الذكر . شحيح اليد . مقتر بخيل . ولو كان باسط اليد . لعرفه القصاد ، وسعى إليه الناس ولن يشرف الممدوح أن يكون على هذا النحو مهما لقى الشاعر وناقته من ضنى وعذاب فى سبيل الوصول إليه .

وقد تأتى الصورة التشبيهية لتمثل طول الصحراء وشدة السير فيها فى قول الشاعر[1] :

وَخَـرقٍ مكَـانُ العِـيس مِنْـه مَكَانُنَـا مِنْ العِيس فِيه واسِطُ الكُورِ والظَّهْرُ
يَخِـدْنَ بنـا فـي جَـوْزَهِ وَكَأنَّنَـا علـى كـرةٍ أو أرضُـهُ مَعَنـا سَـفْرُ

فالشاعر يصف مفازة (خرق) بسعتها . وطولها ، قد توسطها وهو راكب على وسط ظهر البعير الذى يمشى فى هذا الخرق . فكأن مكان الشاعر من ظهر الجمل هو مكانه من هذا الخرق . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه مشى الإبل فى هذا الخرق الواسع الممتد ، وتوسطها له ، وعدم قطعها واجتيازها لظهره بتوسط الراكبين على ظهر الإبل ، وتوسطهم لمتنها ووجه الشبه بين الطرفين هو عدم التجاوز والانتقال ، ولاحظ أن الشاعر يريد أن يشعر المتلقى بامتداد الصحراء واتساعها وأن قطع الإبل لمسافتها وسعتها لا يظهر له أثر كبير من خلال هذا المشى الذى يريد أن يصل إلى نهاية هذه المفازة التى لا تلوح لها نهاية بسبب سعتها وطولها فكأنه فى سطها لم يتخط هذا الوسط ولم يتجاوزه . ولذلك يشبه مشى الإبل السريع فى جوز تلك الصحراء وفى متنها بمن يسير ويمشى على كرةٍ ، أو أرض هى الأخرى مسافرة . والكرة لا يعرف لها أول ولا يعرف لها آخر ، لأنها مكورة متصلة متناسبة ووجه الشبه بين السيرين هو الاتصال والاستمرار وعدم الوصول إلى النهاية .

والصورة التشبيهية تفيض بالمشاعر . فالشاعر يتعجل اللقاء ، والصحراء مترامية الأطراف بعيدة المسافات . والإبل تسير ولكن لهفة الرجل فى سرعة الوصول إلى الممدوح الذى يطمع فى تحقيق آماله على يديه تجعل النياق وكأنها قد توقفت فلا تسير ، أو كأنها تسير على كرة تاهت معها الحدود ، وضاعت فيها العلامات ، أو كأن الأرض نفسها تمشى بمشى غيرها وتسير بسيره فتظل المسافة الفاصلة بين الشاعر وبين الممدوح ثابتة باقية كما هى عليه من قبل أن يمشى ، ولا تنس أن الشاعر يريد أن يعلم ممدوحه مدى الصعاب التى عاناها وكابدها . من أجل أن

---

(١) الديوان ٢/١٥١ ، ١٥٢ .

ينعم بلقائه وأن يمتع نفسه بمؤانسته وبذلك يحقق له مكانا طيبا فى قلبه يستحقه لأنه رحالة جواب لا يبالى بما يلقاه فى الرحلة من وعثاء ، ولا بما يصادفه من مخاطر فهو شجاع قوى لا يخاف شيئا ولا يخشى من شىء . وبذلك تؤدى الصورة البيانية وظيفتها وترتبط بسياق الكلام ، وغرض الشاعر .

ومن خلال الحديث عن الناقة كمجال من مجالات الصورة البيانية قد يتخذ الشاعر منها ومن الرحلة التى تقطعها رمزا إلى شجاعته ، ويستثمر خصائص الحديث عن الناقة فى الحديث عن شخصه وعن همته فتكون الناقة هى المعادل الموضوعى له فى اجتيازه الشدائد ، وتغلبه على الصعاب ، وسعيه لتحقيق الآمال ولذا ينطلق أحيانا بعد وصف رحلته على الناقة إلى الحديث عن نفسه فى صور بيانية فى قوله[1] :

رَكِبْتُ مُشَمِّراً قَدَمى إلَيْهَا ... وكُلَّ عُذَافِرٍ قَلِقِ الضُّفُور
أوانَاً فِى بيوت البدو رَحْلى ... وآوِنَةً عَلَىَ قَدَمِ البَعِيرِ
أعَرِّضُ للرماحِ الصَّمِّ نَحْرِى ... وأنصِبُ حُرَّ وَجْهِى للْهَجِيرِ
وَأَسرِى فِى ظَلامِ اللَّيلِ وَحْدِى ... كأنِّى مِنْه فِى قَمَرٍ مُنِيرِ

إن حديثه عن نوع خاص من الإبل (كل عذافر) ركبها مشمرا عن قدميه إلى الحرب وفى (ركبت مشمرا قدمى إليها) كناية عن الجد والإسراع فى وقت الشدة وفى (قلق الضفور) تكنية عن شدة السير ، والهزال والعذافر فى أصله : هو الشديد من كل شىء ويرمز به إلى قوته وشدته وسياق الكلام يؤكد ذلك فهو دائما رحالة جواب أما إقامته فقليلة كما فى البيت الثانى وفى البيت الثالث : يعرض للرماح الصم نحره . كناية عن استهانته بالمخاطر ، وعدم مبالاته بها . وبهذا يصل إلى قمة التركيز فى بؤرة الصورة بعد أن أوضح عدم اكتراثه بما يمكن أن يحيق به من هلاك ، وما يداهمه فى ظلام الليل حتى لقد تحول الظلام فى خاطره هو وفى فؤاده إلى إضاءة كاملة يسير فيها ولا يخشى رهبة الظلام ، ولا سطو قطاع الطريق ، ولا يحسب حسابا لوحوش الصحارى والتشبيه ينعقد فى البيت الرابع من خلال

---

(١) الديوان ٢/١٤١ ، ١٤٢ .

تشبيه سيره منفردا فى ظلمة الليل البهيم ليس معه إلا ناقته بسيره فى نور القمر وضيائه فى الوضوح وعدم الرهبة .

إن الشاعر خبير بالصحراء يعرف مجاهلها ، ومسالكها لا يضل فيها ، ولا يتوه ولما كان القمر وحده لا يكفى لإبراز ما يعتمل فى صدر الشاعر من همته ، وشجاعته وخبرته بالصحراء ، لأنه وهو فى كبد السماء قد يكون مطويا فى ضباب السحب والغيوم وصفه بأنه (منير) ليشعرك إلى أى مدى يكون الظلام الحالك عنده كالقمر المنير . ولاحظ كيف يخلع التطابق بين الظلام والإنارة على الصورة من ظل تتحدد معه المساحة الضوئية والظلية .

وقد تأتى الصورة البيانية من خلال الحديث عن الناقة والرحلة لِكى ترمز إلى طموح الشاعر كما فى قوله[1] :

أَرأَيْـت هِمّـة نـاقتى فـى نَاقَـةٍ ... نَقَلَـت يَـدا سُـرُحا وخفـا مُجْمَـرَا

وَتَكَرّمـتْ رَكَباتُهـا عـنَ مَبـرِكٍ ... تقعـان فيـه ولـيْسَ مِسْـكاً أذْفَـراَ

فَأَتَتْـكَ دَامِيـةَ الأَظَـل كَأَنَّمَـا ... حُـذِيْتَ قَوَائِمُهَـا العَقِيـقَ الأحمـرا

بَـدَرَتْ إلَيْـكَ يَـدَ الزمـانِ كَأَنَّمَـا ... وَجَدَتْـهُ مَشْـغُولَ اليَـدَيْن مُفَكِـرَا

أرأيت إلى البيت الأول والثانى : وكيف يخلق لطموحه مكانا من خلال الحديث عن همة ناقته التى هى من همته . وهى تمضى به فى سرعة وشوق إلى ابن العميد؟ فالصورة فى البيت الأول : كناية عن علو همة الشاعر الذى يستحث ناقته على السير .

ثم كيف تكرمت ركبانها حين وصلت إلى الممدوح فلم تبْرك إلا على المسك الأذفر؟ وفى وقوع مباركها على هذا النوع من الطيب ما يكنى عن كثرته وامتهانه عند الممدوح إلى الحد الذى جعله فى مكان الإناخة للنياق وما يرمز إلى طيب الإقامة عند ابن العميد الذى جعل المسك فى مبارك الإبل فكيف بمجالس الرجال؟

والمتنبى إذا جاء إلى رجل هذه مجالسه . وفى ذلك إشعار منه وتعريض للممدوح بما يرجوه عنده ، وبما يأمله فى جنابه مما يدل على طموحه .

---

(١) الديوان ٢/١٦٨ ، ١٦٩ .

ثم انظر إلى التشبيه فى البيت الثالث : الذى يصور تأثير السير فى أخفاف الناقة وهى تحمل الشاعر فى طريقه إلى ابن العميد . فيشبه تأثير السير فى أخفافها من كثرته واجتيازها للبيد والفلوات باحتذاء قوائمها للعقيق الأحمر فى اللون .

وفى البيت الرابع يبين أن الناقة انتهزت الفرصة حين رأت الزمان مشغولا عنها فسبقته للوصول إلى الممدوح ومبادرتها إلى بابه وفى إضافة اليد للزمان وجعله مشغولا مفكرا ما يفيد أنه شبه الزمان بالإنسان الحى وحذف المشبه به ورمز إليه بما هو من لوازمه كاليد ، والشغل ، والتفكيرعلى طريق الاستعارة المكنية . والتشبيه الاصطلاحى فى البيت يقوم من خلال تشبيه سبقها إلى الممدوح ، ومبادرتها إلى بابه فى غفلة من يد الزمان ، وصروفه بمن وجدت الزمان مشغولا عنها بغيرها فتصرفت من ورائه ووجه الشبه هو انتهاز الفرصة المناسبة فى الوقت المناسب .

وانظر كيف يخلع التشخيص على هذه الناقة من المشاعر والأحاسيس ما يجعلها كالإنسان تحس ، وتدرك ، . وتشعر؟ فهى تنتهز الفرصة حين يغفل عنها الزمن لكى تحظى بشرف الوصول إلى الممدوح . ثم انظر إلى ضخامة تلك الأحاسيس التى تعرف أن الزمن مهمته أن يفرق بين الأحبة ، وأن يرصد الحركات ، ويتعقبها ليأتى بعد ذلك بما يسوء . وكيف أنها انتهزت الفرصة فى غفلته وانشغاله فسابقت الريح وهى تحمل الشاعر إلى الممدوح؟ إن مشاعر الناقة من مشاعر الشاعر ، وشوقها من شوقه وهذا ما أدته الصورة من خلال النظم ووحى الكلام .

والناقة رمز للنجاة ، وسفينة الصحراء ، وكيد للأعداء ، ومَيط للأذى كما فى قول الشاعر[1] :

وكُـــلُّ نَجَـــاةٍ بُجَاويـــةٍ خَنُـــوفٍ ومـــابِى حُسْـــن المشـــى
ولكـــنّهن حبـــأَلُ الحيـــاةِ وكَيـــد العُـــداةِ وَمـــيط الأذى

فالناقة رمز للحياة ، لأنها توصل إليها . وهى كيد للأعداء . فعن طريقها يدفع شرهم ، والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الناقة بحبل الحياة وكيد العداة ، ودفع الشر والأذى فى النجاة والخروج من المهالك .

---

(١) الديوان ١/٣٧ ، ٣٨ .

كما قد تُصور بأنها كالموجهة فى قوله[1] :

كـأنَى مِـنَ الوَجنَـاء فِـى ظَهْـرِ مُوجَـةٍ رَمَـتْ بـى بِحَـارا مَـالَهُن سَـوَاحِلُ

والشاعر يتحدث عن رحلاته المتلاحقة وسط صحراء مترامية على ظهر ناقة سريعة تقطع به البيد الواسعة . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه نفسه فوق ناقته التى تتحرك به فى سرعة وسط تلك الصحراء الشاسعة بالموجة التى ترميه فى بحر لا ساحل له والذى يجمع بين الطرفين هو صورة تلك الحركة السريعة المتصلة والمتتابعة . وبذلك تأخذ الناقة حظاً من التصوير البيانى فى شعر الرجل وتحتل المكانة الثانية بعد الحصان والفرس .

تصوير الكلب :

ذكر الديوان أن أبا على الإدراجى أرسل كلبا على ظبى فقضه فلما دخل عليه أبو الطيب طلب منه أن ينشئ فيه شعرا وبعد أخذ ورد قبل أبو الطيب وكان مما قاله فيه[2] :

١) لَـه إذَا أدْبـر لَحْـظُ المُقْبِـلِ كأَنَّمـا يَنْظُـر مـنِ سَـجَنْجَلِ

٢) يَعْـدُو إذا أحْـزَنَ عَـدْو المُسْـهِلِ إذا تَـلاَ جَـاء المَـدَى وقـد تُلِـى

٣) يُقْعِى جُلُوسَ البَدَوِّى المْصَـطَلَى بـأربع مجدولـة لـم تُجْـدَل

٤) فُتْـلُ الأيـادى رَبِـذَات الأرْجُـلِ آثارُهـا أمثالُهـا فـى الجَنْـدَل

٥) يَكَـادُ فـى الوثْـبِ مِـنْ التّفَتُّـلِ يَجْمَـعُ بَـيْنَ مَتْنِـه والكَلْكَـلِ

٦) وبَـينَ أعـلاهُ وبـين الأسْـفَلِ شَـبيهُ وسـمِّى الحِضَـارِ بـالْوَلِى

٧) كأنـه مُضَـبَّرٌ مِـنْ جَـرَوَلِ مُوثَّـق عَلـى رِمَـاحٍ ذُبَّـلِ

٨) ذِى ذَنَـبٍ أجـردَ غيـرِ أعـزَلِ يَخُـطّ فـى الأرضِ حِسَـاب الجُمَّـل

٩) كأنـه مِـنْ جِسْـمِه بِمَعْـزِلَ لَـوْ كـانَ يُبْلِى السَـوط تحريكُ بَلِى

١٠) نَيْلُ المُنَى وحُكْم نَفْسِ المُرسِلِ وعُقْلَـةُ الظَّبْـى وَحَتْـفُ التَّتْفُـلِ

---

(١) الديوان ٣/١٧٦ .

(٢) المرجع السابق ٣/٢٠٤-٢٠٧ .

١١) فانبريا فَـذَّينِ تَحْـتَ القَسْـطَلِ قَـدْ ضَـمن الآخَـرُ قَتْـلَ الأولِ
١٢) مُقْتَحِمًا على المكان الأَهْـولِ يَخَـالُ طُـولَ البَحْـرِ عَـرض الجَـدولِ
١٣) حتّى إذَا قِيـلَ لـه نِلْـتَ افعـلِ أفتَـرَّ عـن مَذْرُوبَـةٍ كَالأنْصُـلِ
١٤) لا تَعْرِفُ العَهْدَ بِصَقْلِ الصّيْقلِ مُرَكَّبـاتٍ فـى العـذابِ المُنْـزَلِ
١٥) كأنَّهـا مِـنْ سُرعةٍ فـى الشَّـمألِ كأنهـا مِـنْ ثقـلٍ فـى يِـذْيُلِ
١٦) كأنَهـا مـنِ سـعةٍ فـى هَوْجَـلِ كأنَّـه مِـنْ عِلْمِـه بالمقْتَـلِ
عَلَّـمَ بُقْـرَاط فِصَـادَ الأكْحَـلِ

هذا تصوير لطرد الكلب للظبى وقتله فيه إطناب وأول ما يلقاك من هذا التصوير هو وصف الكلب بالسرعة ، وحدة النظر ، فهو يرى الشىء مدبرا كرؤيته له مقبلا فى الوضوح والظهور ، ثم يؤكد هذا الوضوح فى الرؤية فيشبه عينيه الحادتين فى صفائهما بالسجنجل (المرآة) فى الصفاء والوضوح .

وفى البيت الثانى يصف جريه السريع بالسهولة : وهو لا يتأثر بصعوبة المكان الذى يجرى فيه ولا بسهولته . فيشبه عدوه فى الأرض الشديدة الصلبة بعدوه فى الأرض السهلة ، ووجه الشبه هو سرعة الجرى مع التساوى وعدم التأثير .

وفى البيت الثالث يصف الكلب فى حال إقعائه وسكونه بعد أن وصفه فى حال حركته فيشبه الكلب فى إقعائه . وإقعاؤه : أن يجلس على إليته ناصبا ذراعيه فى سكون وهدوء . بهيئة البدوى وهو جالس أمام النار . منحنيا عليها بصدره مادًّا ذراعيه مباعدا ما بين ركبتيه محاولا أن يستمتع بأكبر قدر من الدفء فى هدوء وسكون ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من السكون الناشئ من وقوع كل عضو من أعضاء المشبه والمشبه به فى موقعه الخاص من غير حركة .

وفى البيت الرابع يصف قوائمه بأنها مفتولة فى العدو والجرى شديدة الوطء لقوتها وأنها إذا وطئت صخرا أثرت فيه على قدر صورتها . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه أثر أقدام الكلب فى الصحراء بمثل واطئ قدميه فى الشكل والهيئة ، ولم يرد هذا فى الكلب وفى ذلك مبالغة مرذولة وفى قوله :

وَبَـيْن أعْـلاه وبـينَ الأسـفْلِ شـبيه وسـمّى الحضـار بـالوَلى

وصف للكلب بعدم الإعياء ، والفتور ، وعدم التغير لشدته وصلابته .

والوسمى : أول المطر ، والولَى : ما يليه . والحضار : الجرى الشديد .

والأعلى : رأسه . والأسفل : قوائمه . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه تتابع حركته فى العدو والوثوب بتتابع المطر بعد المطر ووجه الشبه بين الطرفين هو الاستمرار وعدم التوالى وفى قوله :

كأنـــه مُضَـــبّر مـــن جَـــرْول موثّـــقٌ علـــى رِمَـــاحٍ ذُبَّـــل

والمضبَّر : الشديد المحكم الخلق . والجرْول . الحجر يصفه بالقوة والصلابة ، والذيل : الرماح . يصفه بأنه شديد الإحكام فى خلقه وأن قوائمه كالرماح فى طولها . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه الكلب فى صلابته وإحكام خلقه بالحجارة فى الشدة والصلابة . وفى قوله :

ذِى ذَنَـــبٍ أجْـــرَدَ غَيْـــرِ أعْـــزِلِ يَخُـــطُّ فـــى الأرضِ حِسَـــاب الجُمَّـــلِ

وصف له بأنه سليم غير معيب (غير أعزل) والأعزل الذى لا يكون ذنبه على حساب فقاره . وهو عيب فى الخيل ، والكلاب . ثم يبين أن ذنبه يترك أثرا فى الأرض كآثار الكاتب إذا كتب حساب الجمل وهو ما يكتب به المنجمون من كتابة غير مفهومة والتشبيه ينعقد من تشبيه آثار ذيله فى الأرض وهو يعدو بآثار الكاتب إذا كتب حساب الجمل ووجه الشبه هو ما بين الأثرين من عدم الوضوح ، والفهم ، وفى قوله :

كأنّـــهُ مِـــنْ جِسْـــمِه بَمِعْـــزِلِ لـوْ كَـان يُبْلِـى السُّـوْط تحريـك بَلِـى

يصف ذنبه لكثرة تلويه ، وتحركه وبعده عن باقى الجسد ، بأنه كالمنفصل عن جسده ومع هذه الحركة المستمرة لذيله فإنه لا يبلى ، ولا يفنى .

يشبه ذيله فى كثرة حركته ، وتلويه من غير أن يتأثر بذلك . بالمنفصل عن جسمه الغريب عنه ووجه الشبه بين الطرفين هو البعد .

ثم يتحدث عن شجاعة الكلب واقتحامه المخاطر والأهوال فى قوله :

مُقْتَحِمـــاً عَلـــى المكـــان الأهْـــولِ يَخَـال طُـولَ البَحْـر عَـرض الجـدْولِ

فهو يقتحم الشدائد والصعاب غير هياب ولا وجل حتى لكأن طول البحر عنده عرض جدول صغير ، والطول أكثر مسافة من العرض ، والبحر أكبر من الجدول .

وإذا كان طول البحر على ما فى اقتحامه من خطر كعرض النهر فأية همة تلك وأيه شجاعة ؟

والتشبيه يقوم من خلال تشبيه اقتحامه طول البحر وعبوره باقتحامه عرض الجدول فى السهولة واليسر .

ثم يصف الكلب فى وقت الصيد حين يطلب منه أن يفترس فرائسه فيقول :

حتى إذا قيل له نلت افعل افترعن مذروبة كالأنصُلِ

لا نعرف العهد بصَقْلِ الصَّيقلِ مركبات فى العذاب المُنزلِ

والمذروبة : هى الأنياب المحددة والكلب حين يكشر عن أنيابه فإنما هى أنياب حادة قاطعة تمزق كل شىء فهى كالنصال الماضية المسنونة .

والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الأنياب بالنصال فى القطع والنفاذ .

ثم تتوالى أوصاف المشبه به . التى تكنى عن مضاء تلك النصال ، فهى ماضية أبدا . نافذة أبدا لا تثلم ، ولا تحتاج إلى صقل من صيقل وهذه الأوصاف تنعكس على المشبه فيكتسب معناها . أرأيت كيف وصف المشبه بقوله مركبات فى العذاب المنزل؟ وكيف صار خطام الكلب وكأنه قضاء الله النازل وعذابه الذى لا يدفع ولا يرد؟

ثم يتحدث عن سرعة الكلب من خلال أنيابه فيقول :

كأنها من سُرعة فى الشمألِ كأنها من ثَقِل فى يَذْبُل

والشاعر يتحدث عن خفة عدو الكلب إلى صيده حتى لكأنه الريح ، وعن ثقله على فريسته حتى كأنه الجبل . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه انطلاق الكلب مفترا عن أنيابه بأنه كالجبل فى الثقل . ولاحظ أن الشاعر يتحدث عن أنياب الكلب وهى لا تنفصل عنه ، وهو يريد أن يشعرك بأنه يعرف طريقة إلى صيده جيدا فهو حين يعدو لاقتناصه يكون كريح الشمال السريعة ، وحين يقتنصه فإنه يفتك به فلا يستطيع منه فكاكا ولا هربا ويصير هذا الكلب وكأنه الجبل فى ثقله .

ثم يتحدث عن فمه الواسع والأنياب فيه فيقول :

كأنها من سِعَة فى هَوْحلِ كأنه من عِلْمِه بالمَقْتَل

علم بقراط فصاد الأكحل

فهو يشبه فمه الواسع والأنياب فيها بالأرض الممتدة المتسعة . والتشبيه يشعرك بأن هذا الكلب ذو فم يبتلع كل شيء ، ولا يتعذر عليه شيء ، ثم هو كلب مدرب معلم يعلم طريقه إلى مقتل صيده فينفذ إليه فى خفة ، وسرعة حتى لكأنه علم الحكيم بقراط فن التشريح ، والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الكلب فى وصوله إلى مقتل الفريسة فى يسر وسهوله بمن علم بقراط فن التشريح فى السبق والتدريب .

تصوير البازى

ذكر الديوان أن أبا العشائر أرسل طائره على مجلة حجلة فقال فى ذلك أبو الطيب هذا الشعر[1] :

وطَائرةٍ تَتبَعُهَا المنَايَا ... على آثارِهَا زجلِ الجَنَاحِ
كأنَّ الريشَ مِنه فى سِهامٍ ... عَلَى جَسَدٍ تَجَسّمَ مِنْ رياحِ
كأنّ رءوس أقلامٍ غِلاظٍ ... مُسِحْن بريش جُؤجِئِه الصّحاحِ
فأقْعَصَها بُحجْنٍ تحت صُقْرٍ ... لَهَا فعلُ الأَسِنةِ والرِّمَاحِ

وأنت تشاهد فى البيت الأول هذه الحجلة الطائرة التى تتبعها المنايا من خلال هذا البازى القوى الذى يسمع صوت جناحه لقوة طيرانه (تكنية عن القوة والفتك) فالمنايا تمشى بمشيه ، وتسير بسيره .

وانظر إلى ريش هذا البازى القوى الفاتك فى البيت الثانى وأنت ترى السهام القاتلة تبرز منه نافذة خارقة ، وإلى الرياح التى تجسمت وتجسدت فصارت جسدا مُنْقَضّا سريعا فى شخص هذا الطائر الجارح ، أرأيت إلى التكنية عن سرعة هذا البازى الذى جعله الشاعر يتشكل من الرياح؟ ثم أرأيت إلى الاستعارة التى تتحقق من خلال تجسيد ما لا يجسد وتجسيم ما لا يجسم فى هذه الرياح؟ثم أرأيت إلى التشبيه الذى يقوم من خلال تشبيه ريش هذا الطائر بالسهام فى النفاذ والاختراق؟

وانظر إلى صدر البازى فى البيت الثالث وما به من نقش مختلف الألوان بين أبيض وأسود وكيف شبهه الشاعر برءوس غلاظ مسحن بثوب أبيض فى اللون والشكل . والصورة هنا مزج بين اللون ، والشكل والحركة السريعة المتسمة بالقوة والشدة

---

(١) الديوان ١/٢٥٩ ، ٢٦٠ .

والعنف ، وانظر إلى فعل البازى حين انقضَّ على فريسته لقد دق عنقها (أقعصها) فماتت فى لحظة . إن مخالبه القوية قد أنشبها فى مقتل الحجلة فقضى عليها فى سرعة خاطفة بما لها من نفاذ ومضاء واختراق شبيهة فى فعلها بفعل الأسنة والرماح فى القطع والاختراق .

تصوير الظبى

توسل المتنبى بالتصوير البيانى فى الحديث عن الظبى عند قوله[1] :

عِـنَّ لَنَافِيـه مُرَاعِـى مُغْـزِل ... مُحَـيِّنُ الـنَّفْسِ بعيـدُ المَوئِـلِ

أغْنَاهُ حُسْنُ الجيدِ عَنْ لُبْسِ الحُلِى ... وعـادةُ العَـرْى عـن التَّفَضُّـلِ

كأنَـهُ مُضَـمَّخٌ بِصَـنْدَلِ ... مُعْتَرِضـاً بِمِثْـل قَـرْنِ الأيِّـلِ

والتصوير يوحى بالرقة ، ويشرق بالجمال ، فالظبى قد (عن) طلع فجأة بما فى صورته من رمز لإقبال الحياة فى خفتها ، وتفتحها ، ورشاقتها . وهو طويل العنق جميله قد استغنى بروعة عنقه ، وحسن جلده عن حلى يتحلى به ، وعن ثياب يتزين بها ، ثم شبه لونه فى البيت الثالث بلون الصندل فى درجة اللون والصندل : نوع من الطيب فهو يجمع مع اللون طيب الرائحة ثم شبه قرنه بقرن الأيل فى الطول ، والأيل : ذكر الأوعال . والصورة فيها من الغزل رقته ، وخفته والألفاظ المصورة من هذا الوادى الساحر الجميل وقد توسل المتنبى بالتشبيه فى تصوير النعام بالنخل وبقر الوحش بالمنار فى قوله[2] :

فَظَنّـوا النَّعـام عليـك النَخيـل ... وظنـوا الصّـوارَ عليـكَ المنَـارَا

ففى البيت تشبيه النعام بالنخيل فى الطول والارتفاع وتشبيه الصوار بالمنارة فى الظهور . والتشبيه بصورته تلك يمثل الإجهاد ، والمشقة وما عاناه الرجل ، ورفاقه فى رحلة السفر عبر الطريق الوعرة فى الصحراء المترامية وأثر ذلك فى تقديرهم للأشياء وحكمهم عليها ذلك أن الشاعر قال هذا بعد خروجه من مصر ووصوله إلى البسيطة .

---

(١) الديوان ٣/٢٠٢ ، ٢٠٣ .

(٢) المرجع السابق ٢/١٤٧ .

تصوير الليل :

توقف المتنبى أمام الليل يتأمله ويتملاه يطارحه همومه وأحزانه ، ويشكو طوله وامتداده فى لوعة شاجية وألم دفين فقال[1] :

أَعَزْمِـى طـال هَـذَا اللَّيْـل فـأنْظُرْ ... أَمِنْـك الصُّـبحَ يَفْـرَقُ أن يئُوبـا
كـأنّ الفَجْـرَ حِـبُّ مسُـتَزَارُ ... يُرَاعِـى مِـنْ دُجُنَّتِـه رَقِيبَـا
كـأن نُجُومَـه حَلـى عليـهِ ... وَقَـد حُـذِيَتْ قَوائِمُـهُ الجَيُوبـا
كـأنَّ الجَـوَّ قاسَـى مـا أقاسـى ... فَصَـار سـوادُه فيـه شُـحُوبَا
كـأنّ دُجَـاه يَجْـذِبُها سُـهَادِى ... فَلَـيسَ تغيـبُ إلاَّ أنْ يَغِيبَـا
أُقلِّـبُ فِيـهِ أجْفـانى كـأنَى ... أُعَـد بِـهِ علـى الـدهْرِ الـذُّنُوبَا
ومـا لَيـلُ بـأطولَ مِـنْ نَهـارٍ ... يَظَـلُّ بِلَحْـظِ حسّـادِى مشـوبا
عَرَفْـت نَوَائِـبَ الحَـدَثَان حتّـى ... لـو انْتَسـبَتْ لكنْـتَ لهـا نقيبـا

فالشاعر فى البيت الأول يخاطب من لا يخاطب فهو ينادى عزمه ويهتف به أن ينظر إلى الليل الذى تطاول وامتد حتى لكأن الصبح يفرق الظهور ويخشاه خوفا من عزمه الذى يقتحم المصاعب والمخاطر ، ولا يقف أمام طوفانه المدمر المكتسح شيء أى شيء . وهكذا تشخص الاستعارة هذا العزم وتجعل منه إنسانا يخاطب وينادى عليه فيسمع وينظر ويرى الصبح الخائف المرتعد الذى لا يريد أن يظهر بسبب خوفه من عزم الشاعر وفرق الصبح وخوفه استعارة أخرى .

وفى البيت الثانى يبين لهفته على إشراقة الفجر ، وانبلاجة الصبح وانقضاء الليل . فيشبه الفجر بالحبيب الذى يبغى زيارة من يحب ولكن الرقيب يحول دون هذه الزيارة المرتجاة وما كان الرقيب هنا إلا ظلمة الليل الحالكة التى منعت زيارة الحبيب وحالت بينه وبينها . ولك أن تتصور مدى ما يعانيه الرجل من توتر نفسى ، وقلق داخلى صبهما فى تلك الصورة التشبيهية من خلال إحساسه بليله الطويل الكئيب الذى يتمنى انقضاءه حتى لقد أصبح يرى فى الفجر صورة الحبيب المرتقب

---

(١) الديوان ١/١٣٩ ، ١٤٠ .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه طول الليل وإبطاء الفجر بالحبيب الذى يخاف رقيبا ووجه الشبه بين الطرفين هو الإبطاء والتأخير فى كل .

وفى البيت الثالث يؤكد الشاعر طول ليله التى تأتلق فى صفحته النجوم وتكون كالحلى عليه ومادامت نجومه متألقة ساطعةَ فلَيلُهُ باق ممتد . إن ليل الرجل قد توقف فلم يعد ينقضى أو يسير بعد أن تزين بالنجوم ، وانتعلت قوائمه الأرض فصار مقيدا بثقلها لا يستطيع الحركة والمسير ، ولك أن تتصور الليل ذا القوائم وقد صارت الأرض بضخامتها حذاء لقوائمه إن الليل فى خيال الشاعر قد تحول إلى ذات قوائم استعيرت له وتجسد هو منها وأن الأرض بضخامتها وثقلها واتساعها قد صارت حذاء لقوائم هذا الليل وبهذا تؤدى الاستعارة وظيفتها فى التعبير عن طول الليل المقيدة قوائمه بحبوب الأرض والمرتبطة بها والتشبيه يقوم من خلال تشبيه نجوم الليل بالحلى فى الزينة .

وفى البيت الرابع تتضح معاناة الشاعر ، وآلامه المبرحة الحادة وقد شاركه الليل همومه ، وأوجاعه ، وأحزانه بعد أن أحس بما يحس به وشعر بما يشعر لقد أصابه ما أصاب الشاعر من الضيق والشحوب والهزال . وقاسى ما يقاسيه من كثرة الوجد فصار سواده كالشحوب إن سواد الليل الممتقع قد تغير شكله ، وانطفأ لونه فصار باهتا شاحبا وكأن علة أصابته فتركت أثرها سقما ، وانطفاء ، وهزالا والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه معاناة الليل بمعاناة الشاعر فى المقدار والكم . وتشبيه سواد الليل بالشحوب فى اللون .

وفى البيت الخامس يستمر الشاعر فى شكواه يرجع أنِينه ويردّد حزنه من خلال ظلمة الليل المنجذبة إلى سهاده ، والمشدودة إليه ، والمعلقة به والمرتبطة ببقائه ، وإذا كان سهاد الشاعر باقيا ، وألمه خالدا فلن ينجاب الظلام ، ولن ينقشع الليل ، لأنه معلق بالسهاد الدائم والمستمر .

إن التخيل فى الاستعارة يجعل من السهاد منجذبا إليه ومن ظلمة الليل منجذبا إلى السهاد وهكذا تتشابك كل تلك العناصر فى الصورة لتعبر عن حزن الشاعر وسهره وألمه والتشبيه الاصطلاحى يقوم من خلال تشبيه الدجى فى استمرارها

وارتباطها بسهر الشاعر بالمنجذبة إلى سهاده المستمر ووجه الشبه بين الطرفين هو البقاء والاستمرار .

وفي البيت السادس :

أُقَلِّبُ فِيهِ أجْفانى كأنَى أُعَد بِهِ على الدهْرِ الذُّنُوبَا

يصور الشاعر سهده وسهره فى ليله البغيض الطويل ، وهمه الثقيل . إنه يحاول النوم فيستعصى عليه ويتأبى ويمتنع فلا يبقى أمامه إلا أن يقلب فى ظلمته الدامسة أجفانه التى لا تفتر ولا تنى وكأنها تحسب وتحصى وتسجل على الدهر ذنوبه وخطاياه ، وما أكثرها من ذنوب وخطايا . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الشاعر نفسه وقد استعصى عليه النوم فأخذ يقلب أجفانه فى ظلمة الليل وفى جوانبها بمن يعد على الدهر ذنوبه وخطاياه ووجه الشبه هو الكثرة فى كل كثرة تقليب الأجفان ، وكثرة ذنوب الدهر .

ويؤكد الشاعر سهده ، وألمه حين يصور التقاء الليل والنهار معا وتعاونهما وتناصرهما فى جلب الأذى والضرر له . الليل بطوله ، والنهار الذى يديم النظر فيه إلى وجوه حساده فى قوله :

وما ليل بأبغض من نهار يظل يلحظ حسادى مشوبا

ثم إن نوائب الدهر بليله ونهاره قد أصابته كثيرا حتى صار عارفا بها خبيرا بدقائقها فهو كالنقيب لها فى قوله[1] :

عَرفْتَ نوائبَ الحَدثَانِ حتّى لو انتَسَبَتْ لكنت لها نقيبا

والتشبيه يقوم من خلال تشبيه نفسه بالنقيب فى الخبرة والمعرفة .

وهكذا استطاع المتنبى أن يصور ليله الطويل ، وأن يوقف المتلقى على مقدار ضجره وألمه من هذا الليل البغيض الثقيل من خلال تلك الصور الجزئية التى جسدت الرؤية النفسية للشاعر حين عبرت عن آلامه ، وأوجاعه وأشواقه إلى طلوع الفجر ليحظى بلقاء الممدوح وليقوم بين يديه بالتوضيح والشرح إلى أى مدى كان يعانى من الغربة النفسية بعد الغربة الجسدية حين كان بعيدا عنه ، وليشعره بعظيم

---

(١) الديوان ١/١٤٠ .

رجائه فيه على قدر عظيم معاناته قبل لقائه وبذلك يضمن لشعره مكانا ومنبرا عنده ، وقد استخدم الشاعر أداة التشبيه «كأن» وكررها فى صوره الجزئية التى تلاحقت وتتابعت للشرح والتبين و«كأن» تستخدم كأداة للربط بين المشبه والمشبه به حين تقرب المسافة جدا بينهما إلى درجة التماثل والتشابك والاختلاط وبهذا كله يكون الرجل قد وظف صوره البيانية فى أداء غرضه ، والسفارة بينه وبين ممدوحه على بن مكرم التميمى . توضيح ما يقاسيه من هموم ، وفقر وحساد ، وأنه يستطيع لو يشاء أن يفرج كربه ، ويزيل همه ، ويمسح معاناته ومن ثَمَّ فهو حريص على الذهاب إليه لِينَال الْحُظْوة لديه ولو على ظهر المجن والخطوب فى قوله[1]:

ولمـــا قلـــتِ الإبـــلُ امتطَيْنَـــا إلـــى ابْـــنِ أبِـــى سُـــلَيْمَان الخُطُوبَـــا

والصورة تشخيصية حيث شبه الشدائد والخطوب بما يركب ويمتطى وحذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه(امتطينا)على سبيل الاستعارة بالكناية .

كما عبر الشاعر عن طول الليل من خلال تصوير النجوم بالعمى فى قوله[2]:

مَـا بَـالُ هَـذِي النُّجُـومِ حَـائِرَةً كَأَنَّهَـا الْعُمْـيُ مَالَهَـا قَائِـدْ

أَوْ عُصْـبَةٍ مِـنْ مُلُـوك نَاجِيَـةٍ أبُـو شُـجاعٍ عَلَـيْهُم واجِـدْ

فالشاعر يتحدث عن النجوم ويصفها بأنها قد وقفت حائرة لا تسرى وفى بيان هيئة النجوم بالحائرة استعارة بالكناية وفى عدم سريانها وأنها كالعميان ليس لهم قائد ما يشعرك بوصف الليل بالطول وأن نجومه واقفة لا تجرى ولا تسرى والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه النجوم فى وقفتها بالأعمى الذى ليس له من يقوده ووجه الشبه هو التوقف عن السريان فى كل أو تشبيهه بعصبة من أعدائه الملوك حيارى متوقفين لا يستطيعون الحركة ووجه الشبه بين الطرفين هو التوقف عن السريان أيضا .

وقد يتوسل الشاعر بالتشبيه فيشبه الليل بالشعر الطويل المسترسل فى قوله[3]:

حَكَيْـت يالـيـلُ فَرْعَهـا الـوَارِدْ فاحـك نَواهـا لِجَفْنِـي السَّـاهِدْ

طُـالَ بُكَـائى علـى تـذكُّرِهَا وَطُلْـتَ حتَّـى كَلاكُمـا واحِـدْ

---

(١) الديوان ١/١٤٠ . (٢،٣) المرجع السابق ٢/٧٢ .

فالشاعر يتحدث عن ليله وظلمته ويبين سواده بسواد شعرها الطويل المسترسل ويطلب إليه أن يبعد كبعدها ولا يطول وفى نداء الليل والطلب إليه يبعد كبعدها نداء ما لا ينادى وخطاب ما لا يخاطب ، وذلك استعارة مكنية قائمة على بث الحياة فيما لا حياة فيه ، وإشاعة نوع من الألفة بين الإنسان وعناصر الكون الأخرى هذا فى البيت الأول وفى البيت الثانى يشرح حالته ويبين أنه طال البكاء على تذكرها كما طال ليله عليه وهو يبكى حتى لقد تشابه الطولان طول البكاء وطول الليل . وفى مخاطبته لليل بقوله (وطُلْتَ) استعارة مكنية قائمة على الامتزاج والانصهار والتفاعل التام بين الإنسان ومعطيات الكون .

والتشبيه فى البيت الأول يقوم من خلال تشبيه الليل بالشعر الطويل المسترسل فى اللون والسواد وتشبيه بُعْد الليل ببعد الحبيبة فى التمنى وفى البيت الثانى تشبيه طول بكائه بطول الليل فى الكم والمقدار .

وقد يتوسل الشاعر بالتصوير البيانى فى الحديث عن الليل . وأنه كالقتيل فى قوله[1] :

١) وَمَـا شَـرقِى بالمـاءِ إلاَّ تَـذَكُّرًا ... لِمـاَء بـه أهْـلُ الحبِيـبِ نُـزُولُ

٢) يُحَرّمُـه لمـع الأَسِـنَّةِ فَوْقَـه ... فَلَـيْس لِظَمـآنٍ إليْـهِ وُصُـولُ

٣) أَمَا فِى النّجُومِ السائِرَاتَ وغْيرِهَا ... لِعَيْنِـى علـى ضَـوء الصـبَاحِ دَلِيـلُ

٤) أَلَـمْ يَر هـذا الليـلْ عَيْنِيكِ رُوِيَتى ... فَتَظهَـر فيـه رقـةُ ونُحُـولُ

٥) لَقِيتُ بَـدْرب القُلـة الفَجـر لُقْيـةَ ... شَـفَتْ كَمَـدى والَّليـلُ فيـه قَتِيـلُ

فهو فى البيت الأول يشرق لتذكره ماء الأحبة فى موطن نزولهم .

وفى البيت الثانى يكنى عن عزة ومنعة أهل الحبيب حيث إن ماءهم حرام على الظماء من غيرهم ، تحرسه سيوفهم ، وتحميه أسنتهم اللامعة وإذا كان أهل الحبيب فى منعة فالحبيب فى منعة .

والبيت الثالث يأتى تكثيفا وتحقيقا لأمانى الشاعر وأحلامه فى انقضاء الليل ، وفى الشكوى من طوله فالصورة التشبيهيه فيه ترتبط بما قبلها بخيط نفسى

---

(١) الديوان ٣/٩٧ ، ٩٨ .

وشعورى فالشاعر فى البيت الثالث يتأمل النجوم ويتملاها ، ويديم النظر إليها وهى تأتلق سافرة فى صفحة الأفق . ويتساءل فى لهفة وشوق عن صبحه الذى غاب ، ويتمنى أن يلتمس الدليل الذى يأخذ بيده إليه فى هذه النجوم السيارة ثم يستفهم من حبيبته متعجبا ومتغربا هل عمى الليل فلم ير عينيك السابيتين الآسرتين كما آراهما فيرق ويهزل من قُوّة سحرهما وشدة جاذبيتهما فَيَنْصَرم ، وينقضى إن رقة الليل معناها هزاله ، ونحوله وهما كناية عن رغبة التلاشى والانتهاء وهذا ما يتمناه الشاعر الذى يشبه رؤية الليل لعينى المحبوبة برؤيته فى التمنى .

إن إحساس الشاعر بطول الليل يستبد به ، ويسيطر عليه وهو مع هذا الإحساس يتلفت إلى عينى المحبوبة ، ويطيل النظر إليهما فيصرعه جمالهما وكم كان يود أن ينظر إليهما الليل ، وأن يشاهدهما وأن يراهما كما ينظر هو ويشاهد ويرى فيحدث مع الليل ما حدث معه ولكن أنّى وكيف؟

ثم تَنْفرج الأزمة حين تصل الصورة بالمتلقى إلى قمتها وبؤرتها من خلال هذا الليل القتيل ، والمضرج بدمائه . الذى انقشعت غياهبه بعد أن فاض الفجر بأضوائه ، وصدع الصبح بأنواره .

إن الشاعر قد لقى الفجر فى هذا المكان (درب القلة) لقية شفت كمده وأنهت حزنه . ولك أن تقف هنا أمام الفعل (لقى) وما يوحى إليه من تصوير للحالة النفسية التى كان عليها الرجل قبل هذا اللقاء ، ومدى ما كان يعانيه من طول الليل وكأن الفجر كان شيئا ضائعا تائها بعيدا يبحث عنه ويفتش فلما عثر عليه ولقيه فى هذا الموضع اطمأنت نفسه ، وسكنت ثورته ، وهدأ انفعاله .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه الليل بالقتيل فى الانقضاء والنهاية . والتشبيه على هذا النحو يوضح إلى أى مدى تكون العلاقة بين أضواء الفجر ، وإظلام الليل وكأن الفجر حين أشرق بنوره قتل الليل وأزهق روحه .

تصوير السيف :

كان أبو الطيب رجلا طموحا إلى المجد يعمل من أجله ، ويسعى إلى تحقيقه ويرى فى رفع الرايات ، وخفق البنود ، والقنا المشتجرة ، والسيوف الصَّقيلة والرماح الخارقة النافذة أداة لما يبغيه من أمانى ، وأحلام انظر إليه وهو يتحدث عن السيف بعد أن عل من مناهل الأعداء حتى صارت الدماء عليه كالغمد فى قوله[1]:

يَبِسَ الضَجِيعُ عَلَيْهِ وَهْوَ مُجَرّدٌ ... مِنْ غِمْدِه فكأنما هو مُغْمَدُ

ريَّان لو قذف الذَّى أسقِيَه ... لَجَرى مِن المُهَجات بَحْرٌ مُزْبِدُ

يتحدث عن سيف الممدوح الذى أكثر به القتل وأعمله فى نحور الخصوم ، والأعداء وكيف أن الدم من كثرته قد غطاه ، وصار له غمدا بعد أن يبس عليه ، وأن هذا السيف ريان . ولو قذف ما فى جوفه من دماء الأعداء التى نهلها لجرى بحر مزبد . والتشبيه فى البيت الأول ينعقد من خلال تشبيه الدم الذى يبس على السيف بالغمد فى التغطية والستر والإحاطة . والتشبيه بصورته تلك يكنى عن قوة الممدوح وكثرة القتلى .

وقد يرسم المتنبى السيف فى صورة تجعل شعاعه يضاهى شعاع الشمس . وإنه مغمود فى غمد على مثاله . وأن فرنده وجوهره كزبد البحر فى قوله[2] :

قَلَّدْتنِى يَمِينُه بِحُسَامٍ ... أعقَبَتْ مُنهُ واحداأجْدادُه

كلما اسْتُلَّ ضَاحَكَته إياةُ ... تَزْعُم الشَّمْس أَنَّها أرآدهُ

مَثلوه فى جَفْنِه خَشْيةَ الفَوْ ... تِ فَفِي مِثْلِ أُثْره إغْمَادُهُ

مُنْعَلٌ لاَ مِن الحَفَاذَ ذهبًا يَحْ ... مِل بَحْراً فرِنَدُهُ إزْبَادُه

والشاعر فى البيت الأول يتحدث عن السيف ويصفه بأنه فرد فى بابه فلا نظير له لأن أجداده لم تنجب غيره وانظر كيف ينتقل بالسيف إلى جنس آخر فيجعله من عالم ما يولد ويجمع بينهما فى قران واحد على طريق الاستعارة بالكناية .

---

(١) الديوان ١/٣٣٧ .

(٢) المرجع السابق ٢/٥٠ ، ٥١ .

وفى البيت الثانى : يصف السيف فى بريقه ولمعانه فيجعل الشمس تضاحكه إشراقا ، ويجعلها تقر بأن ضوءها كضوئه . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه ضوء الشمس بضوء هذا السيف فى الإشراق واللمعان .

وفى البيت الثالث : يتحدث عن صنيع الناس فى هذا السيف العزيز فهو لغُرّته ومكانته يحفظ فى غمد يمثله بما هو عليه ، إذ يغشى هذا الغمد بالفضة والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه جفن السيف وهو غمد بالسيف فى الشكل والصورة ، ومن خلال تشبيه الآثار التى على الغمد بآثار الفرند فى السيف فى اللون والصورة .

وفى البيت الرابع : يتحدث عن غمد السيف وجفنه الذى جعل الشاعر له نَعْلاً من ذهب يصاغ فى طرف الغمد وفى تشبيه ما يصاغ فى طرف الغمد بالنعل فى التزين استعارة ثم تحدث عن فرند السيف وجوهره وهو تلك الخطوط الرجراجة المموجة التى تظهر فى السيف عند اهتزازه وتحركه فيشبه ماء السيف ، وفرنده بزبد البحر فى تموجه واهتزازه .

وهكذا يرسم الشاعر صورة هذا السيف الغريب العجيب ويتخذ من التصوير البيانى أداة لتجليته وتوضيحه فيجعل الغمد شبيها له ويجعل ماء السيف بمنزلة زبد البحر فى كثرته وتموجه بعد أن جعله فردا بين السيوف لا يشاركه فى مضائه وإشراقه واعتزاز الناس به أحد غيره أو سواه .

ويتوسل الشاعر بالتشبيه ليبين أن جوهر السيف وفرنده كجوهره وفرنده وبذلك يزاوج الشاعر بين السيف وبين نفسه وعلى أساس من ذلك تكون العلاقة التى تربط بين الاثنين . فالمتنبى مثال القوة والشجاعة والمضاء ، والاختراق والسيف يحاكيه فى المضاء والنفاذ والاختراق .

يقول الشاعر[1] :

كفَرَنْدِى فَرِنْدِ سَيْفِى الجُرَازِ لَذّة العَيْنُ عُدّةَ لِلْبِرَازِ

فالشاعر يعقد المشابهة بين نفسه وبين سيفه القاطع وتدخل أداة التشبيه (الكاف) على المشبه به الذى يسبق المشبه ويتقدم عليه ، لأن الشاعر يقصد إلى أن يشغل

---

(١) الديوان ٢/١٧٣ .

المتلقى بنفسه أكثر من أى شىء آخر حتى ولو كان هذا الآخر هو الحد الثانى للصورة التشبيهية (المشبه) ولهذا يفاجأ المتلقى بقوله (كفرندى فرند سيفى) ليكون أول ما يتلقاه من كلام هو شخصية الشاعر المعجبة بنفسه ، وبشجاعته ، وقدرته ، ومضائه ، والتى يحاكيها السيف فى المضاءِ والنفاذ والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه فرند السيف وهى : الخضرة التى تتردد فيه بتشبيه فرند الشاعر وجوهره ، ووجه الشبه هو الفعل والأثر ، ثم يصف الشاعر السيف وصفا حسيا جميلا فى قوله[1]:

تَحْسَبُ الماءَ خَطَّ فِى لَهَبِ النَّا ... رِ أَدَقَّ الخُطُوطِ فى الأَحْرَازِ

كُلَّمَا رُمْتَ لَوْنَه منع النّا ... ظِر مَوْج كأنَّهُ مِنْكَ هَازِى

ففى البيتين جمال تصوير ، وروعة أداء . أرأيت إلى الأحراز وما تكتب به من خطوط . إنها خطوط دقيقة جدا . والشاعر ينظر إلى فرند السيف وشطبه التى تظهر فيه وتتردد وكأنها طرق النمال الدقيقة التى هى أشبه ما تكون بتلك الخطوط التى تكتب بها الأحجبة والأحراز إن خضرة ماء السيف التى تتردد وتبدو طرائق وشطبا يتخيلها الشاعر ماء استعمل فى الكتابة على لهب النار وما لَهَبُ النارِ سوى السيف فتكون تلك الطرائق التى تظهر من خلال السيف عند التطويح به واستلاله ، واهتزازه دقيقة كخطوط الأحراز فى دِقتِها ورقتها .

ولابد من التمهل هنا فى معالجة الصورة التشبيهية معالجة تتفق وما يقصد إليه المنشئ ، ويرمى إليه ، ولا تخالف غرض الكلام فالشاعر يشبه بريق السيف وقطعه بالنار فى كل ذلك ثم يشبه شطب السيف وطرقه الدقيقة التى تتردد فيه وتظهر من خلال مائه ، وخضرته عند استلاله ، والتطويح به ، واهتزازه بالخطوط التى تكتب بها الأحراز والأحجبة فى الدقة والرقة ثم أعجب من هذا البصر الذى يبرق ويتردد ، ويرتد ، ويتحير من تموجات ماء السيف ، ورجرجته ، واهتزازه ، وكأنه موج يمنع الناظر من أن ينظر إليه وهو هازى به ساخر من فعله .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه تموجات ماء السيف ، واهتزازه ، وخضرته والتى تمنع النظر إليه بسبب بريقها الذى يبرق معه البصر فيتحير ، ويرتد بالهازئ

---

(١) الديوان ٢/١٧٣ .

الساخر فى عدم الثبات ، والاستقرار ثم يصف السيف بشدة البريق واللمعان من خلال تموجاته الهزهازة والتى تنفذ منها الأشعة التى تحول بين السيف وبين النظر إليه فى قوله [1]:

وَدَقِيقُ قِدَى الهَبَاءِ أَنِيقٌ مُتَوالٍ فى مُسْتَوٍ هَزْهَازِ

ودقيق عطف على موج فى البيت السابق وهو وصف لموصوف محذوف أى وفرند دقيق (وقذف رمح) بمعنى مقداره . والهباء ما تراه متناثرا من الغبار فى الشمس إذا دخلت من موضع ضيق والشاعر يريد أن يقول إن هذا السيف يمنع من النظر إلى لونه فرند دقيق تموجاته كثيرة ، وخطوطه حسنة متتابعة تحول بين العين وبين الرؤية الصحيحة والتشبيه يقوم من خلال تشبيه فرند السيف وما فيه من خطوط مهتزة متموجة ترسل سنا وبريقا يمنع الرؤية بقدى الهباء المتطاير الذى يمنع العين من النظر السليم ووجه الشبه بين الطرفين هو المانع الذى يحول دون الرؤية الكاملة للأشياء .

وقد يقارن الشاعر بين نفسه وسيفه تشبيها كما فى قوله[2] :

إنّ بَرْقِي إذا بَرَقْتَ فَعَالِى وَصَلِيلِى إذا صَلَلْتَ أرْتَجَازِى

فالرجل يرى فى السيف معادلا لنفسه وفعاله فإذا برق السيف فإن برق الرجل هى فعاله ، وإذا صل السيف فصليل الرجل هو ارتجازه وإنشاده وهكذا تقوم الموازنة بين نفس الشاعر ، وبين سيفه وتتحقق هذه الموازنة من خلال تشبيه فعل السيف بفعله هو فى الأثر والنتيجة .

وقد يصور السيف وهو ينهل من مناهل الأعداء ويعاودها ليطفئ ظمأه معها بالعطشان الذى يطلب الارتواء بعد تشبيهه بالنار فى قوله[3] :

كأنّ عَلَى الجَماجِم منه ناراً وأيْدِى القَومِ أَجْنِحَةُ الفَرَاشِ

كأنّ جَوَارى المهجاتِ ماءٌ يُعَاوِدُها المُهنَّد مِنْ عَطَاشِ

---

(١) الديوان ١٧٤/٢ .
(٢) المرجع السابق ١٧٦/٢ .
(٣) المرجع السابق ٢٠٩/٢ .

ففى البيت الأول : يشبه السيف بالنار . فى الإفناء ، والإحراق : كما يشبه الأيدى المتطايرة بفعل السيوف بأجنحة الفراش المتطاير حول النيران فى التهافت والكثرة ولاحظ أن الشاعر حين شبه السيف بالنار جعل أيدى القوم المنفصلة عن أجسادهم كالفراش الذى يتهافت على النار .

وفى البيت الثانى : يصور الشاعر غزارة الدماء التى تجرى من مهج الأعداء نتيجة إعمال السيوف فيها بالمياه المتدفقة كما يصور السيف بالظامئ العطشان الذى يعاود المياه بلا ارتواء .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه غزارة الدماء وجريانها بفعل السيف فيها بالمياه المتدفقة فى غزارتها وكثرتها . ولما شبه الدماء فى جريانها بالمياه فى تدفقها جعل السيف كالظامئ العطشان الذى يعاود الماء للشرب والارتواء . ولا تنس أن المتنبى قد شاهد الغمرات ، وعايش الوقائع الحربية ، وتغنى بآلاتها وأدواتها وإعجابه بالسيف ، وحديثه عنه إعجاب بالشجاعة ، والجرأة والإقدام فالصورة هنا لا تنفصل عن وجدان الرجل ، ولا تبتعد عن كيانه ، وشعوره وإنما تأتى ممثلة لهذا الكيان والشعور الذى يرى فى السيف أداة لإحقاق الحقوق وللفصل بين الحق والباطل .

وقد يتوسل المتنبى بالتصوير البيانى فى إقامة العلاقة المتبادلة بين السيف وبين من يضرب به فالسيف نافذ قاطع سريع فى قطعه ، لا تلحق بغراريه الدماء وحامله يتجسد فى داخله معنى الشرف والعزة لأنه لا يناله عيب ولا يلحق بعرضه وبشرفه ما يخزى ويسيئ فى قوله[1] :

وَهْـوَ لاَ تُلْحَـق الـدماءُ غِراريـْـ ـه ولاَ عـرِضَ مُنْتِضـيهِ المَخَـازِى
يَـا مُزِيـلَ الظَّـلامَ عَنِّـي وروضِـي يَـوْمَ شُـرْبِي وَمعْقِلِـي فِـي البِـرَازِ
وَالْيَمَـاني الـذّى لَـوِ اسْـتَطَعت كانَـتْ مُقْلَتِـى غِمْـدهُ مِـنَ الأَعْـزَارِ

فـفـى الشطر الأول مـن البيت الأول : يشير إلى أن سيـفـه لا يلصق بـه الـدم ولا يتلطخ به لسرعة نفاذه . وذلك كناية عن سرعة قطع السيف لدرجة أن الـدمـاء لا تلحق بغراريه لسرعته فى المرور وفى الشطر الثانى ترى الشرف مجسدا فى نفس الشاعر لا تلحق به المخازى على سبيل الاستعارة بالكناية .

---

(١) الديوان ٢/١٧٥ .

وفى البيتين الثانى والثالث تستمر العلاقة المتبادلة بين جوهر السيف وشكله الخارجى وبين دلالته المعنوية . فهو مزيل لظلام الشاعر . مزيح للعار عنه هو روضه فى شربه ، وهناءته وسعادته . وحصنه الذى يتحصن به ، ويذود عن نفسه من ورائه ولو استطاع أن يجعل عينه غمدا له لفعل وفى سبيل تحقيق هذا توسل بأداة التصوير البيانى فنداؤه للسيف : هو نداء لمن لا ينادى ، ومخاطبة لمن لا يخاطب بعد أن اتسعت الرؤية الشعرية أمام عينى الشاعر فخلع إحساسه بالحياة على ما حوله وجعل من أدوات القتال وسائل للحس ، وللإدراك ، وللخطاب فخاطب السيف على هذا النحو وناداه . إن سيفه ليس آلة صماء لا تعقل ولا تدرك ولكن له نفسا تمتزج بنفس الشاعر وتحس وتجيش جرى على هذا الأساس الخطاب معها والنداء لها . وخلع الحياة على من لا حياة فيه ومخاطبته على هذا النحو من باب ما يسمى بالاستعارة المكنية .

وفى البيت الثالث : يأتى التشبيه ليعكس ما يتمناه الشاعر وما يود أن يفعله من جعل عينه غمدا لسيفه والتشبيه يقوم من خلال تشبيه مقلة الشاعر (جفنه) بالغمد للسيف فى التمنى .

وقد يتوسل بالاستعارة فى تصوير السيوف وهى تتطاول بينها وتبتسم اعتزازا لمشاركتها للممدوح سيف الدولة فى الاسم[1] :

أَتَحْسَبُ بيضُ الهِنْدِ أصْلَكَ أَصْلَها ... وأنّك مِنها؟ سَاءَ ما تَتَوهَّم

إذَا نَحْن سَمّيَناكَ خِلْنا سُيُوفَنَا ... مِن التِّيهِ فِي أَغْمادِهَا تَتَبَسَّمُ

فالاستفهام إنكاري يفيد النفى فسيوف الهند ساء ما توهمته من أنك منها وأن أصلك أصلها لمشاركتك لها فى التسمية إذا أنت أجل منها شأنا ، وأعظم أصلا فالتشبيه ينفى أن يكون أصل سيف الدولة كأصل السيوف فى التدنى .

والبيت الثانى يصور كيف تتطاول السيوف وكيف تبتسم تيهاً وفخراً ؟

لأنها شاركت الممدوح فى التسمية وفى هذا التخييل استعارة مكنية حيث شبهت السيوف بإنسان وحذف المشبه به ورمز إليه بشىء من لوازمه .

---

(١) الديوان ٣/٣٦٠ ، ٣٦١ .

وقد يتشكك الشاعر فى المعادل الموضوعى للسيف وللممدوح حين يتشابه السيف وحامله فلا يدرى كيف يفرق بينهما لأنهما امتزجا فى الصورة فلم يعد يعلم أيهما النصل لمضائه واختراقه[1] :

هُمَامٌ إذَا مـا فَـارقَ الغِمْـدَ سـيفُه ... وعاينتـه لَـمْ تَـدْرِ أيُّهمـا النصـلُ

فهو قد أضاف إلى التشبيه ما يفيد التساوى بين الطرفين فى كل وجه بحيث إذا عاين أحدهما ورآه لا يستطيع أن يحدد أيهما قد رأى؟الممدوح أم النصل؟ فهما متساويان وليس أحدهما أحق أن يكون مشبها به من الآخر .

وقد يتوسل الشاعر بالتصوير البيانى فى الجمع بين السيف وصاحبته وبيان أن سيفه غير عزهاة أى لا يميل إلى الطرب ولا يحن للهو لكنه يقف بينها وبينه فيكون بمثابة الحاجز الذى يفصل بينهما فى قوله[2] :

وَقَـدْ طَرَقْـتُ فَتـاة الحَـيِّ مُرْتَـدِيًا ... بِصَـاحبٍ غَيْـرِ عَزْهـاةٍ ولا غَـزِلِ
فَبَـاتَ بَـيْنَ تَرَاقِينَـا نُدَقِّعُـهُ ... وَلَـيْس يَعْلَـم بالشَّـكْوى ولا القُبَـلِ
ثـم اغْتَـدَى وبـهِ مـنَ رَدْعِهَـا أثَـرٌ ... عَلَـى ذُؤَابَتِـه والجَفْـنِ والخِلَـلِ
لاَ أكْسـبُ الـذِّكْرَ إلاَّ مِـنْ مَضَـارِبِهِ ... أو مِـنْ سـنانِ أصَـم الكعـبِ معْتَـدِلِ

ففى البيت الأول : يبين أنه أتى حَبِيبَه ليلاً مرتديا سيفه الذى لا يميل إلى اللهو ، ولا للغزل ، فى قوله (مرتديا) استعارة تصريحية حيث شبه السيف بالرداء بجامع الملازمة والاقتران وحذف المشبه واستعار المشبه به للمشبه والجار والمجرور فى قوله : (بصاحب) كناية عن السيف ، وفى وصف السيف بأوصاف الرجل بأنه لا يميل للهو ولا يحن للطرب استعارة مكنية .

وفى البيت الثانى : يشير إلى أنه لم يخلع سيفه وإنما بات بينه وبين محبوبته غير عالم بما جرى بينهما ، وهذا كناية عن حذره ، وملازمة السيف له ، وعدم مفارقته إياه .

وفى البيت الثالث : يشير إلى أن سيفه قد لصق بمحبوبته حتى لصق الطيب به والمراد (بذؤابته) حمائله شبه الحمائل بالذؤابة بجامع العلو وحذف المشبه واستعار

---

(١) الديوان ١٨٦/٣ .
(٢) المرجع السابق ٧٨/٣ .

المشبه به للمشبه استعارة تصريحية أصلية ، وكذلك شبه غمد السيف بجفْن الإنسان بجامع الإحاطة فى كل وحذف المشبه وتناسى التشبيه واستعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحية .

وفى البيت الرابع : يريد أن يقول إنه لا يطلب الشرف ولا يحققه إلا من مضارب السيف ، ومن سنان الرمح . والبيت كناية عن عدم تحقيق المجد إلا بالإقدام والبأس . والسيف رمز للنصر ، والمعونة ، والحماية ، ودفع الأذى فى قوله[1] :

تَحْمِى السّيُوفُ عَلَى أعْدَائِه مَعَه كَأَنَّهُنَّ بُنُوه أوْ عَشَائِرُهُ

فتشبيه السيوف بالأهل أو بالعشيرة فى الحماية والنصرة معناه أنه إذا غضب على أعدائه غضبت سيوفه معه كأنها الأهل والعشائر والبيت كناية عن دفع السيوف للأذى عنه .

وبمثل ما صور السيف صور الرمح ، انظر إليه كيف يتوسل بالتشبيه مصورا أسنة الرماح فى قوله[2] :

نُوَدّعهُمْ والبَيْنُ فينا كأنّه قَنَا ابْنِ أبى الهَيْجَاءِ فى قَلبِ فَيْلَقِ

قواض مواض نسج داود عندها إذا وقعت فيه كنسيج الخدرنق

وانظر إلى فعل العيون ، وإلى صنيعها ساعة الرحيل والوداع وكيف يشبه عملها فى قلوبهم بعمل رماح ابن أبى الهيجاء فى أعدائه . ثم تأمل تلك الأسنة وكيف تقضى على عدوها نافذة ماضية تحقق ما يطلب منها ، وهى رماح تتضاءل أمامها أقوى الدروع من نسج داود حتى لتصير أمامها كنسج (الخدرنق) العنكبوت فى الوهن والضعف فتحرقها فى سرعة ، وتنفذ منها فى لحظة والتشبيه يقوم من خلال تشبيه تلك الأسنة فى مضائها . وقضائها ونفاذها فى الدروع المسرودة المحكمة التى هى من نسج داود بنفاذها ، ومرورها فى نسج العنكبوت فى السرعة ثم يبين أن تلك الرماح تعرف هدفها فتصل إليه فى برهة فى قوله[3] :

هواد لا ملاك الجيوش كأنها تتخير أرواح الكماة وتنتقى

---

(١) الديوان ٢/١٢٠ .
(٢) المرجع السابق ٢/٣٠٨ .
(٣) المرجع السابق ٢/٣٠٨ ، ٣٠٩ .

تفـك علـيهم كـل درع وجوشـن وتفـرى إلـيهم كـل سـور وخنـدق

فهذه الرماح تهتدى إلى أرواح الملوك فتنتقيها ، وتقضى عليها بالفتك ، والقتل ، والتشبيه يقوم من خلال تشبيه هذه الرماح حين تهتدى إلى رءوس الملوك وتنتقيها وتقضى عليها بمن ينتقى أرواح الكماة المستترين وراء السلاح فيخطفها ، ويقضى عليها . ووجه الشبه هو انتقاء الأقوى والقضاء عليه .

وإذا كانت هذه الرماح تهتدى إلى أرواح الملوك فتنتقيها ، وتقضى عليها فإن هناك رماحا من نوع آخر هى رماح هشة ضعيفة ، لأن الرماح تستمد قوتها من قوة فرسانها ، ولأنها تمثل رجالها والحاملين لها فإذا كانوا أقوياء كانت نافذة ماضية ، وإذا كانوا ضعفاء كانت على شاكلتهم من الضعف والضعة والهوان وذلك فى قوله[1] :

وخيـلٍ لاَ يخـرُ لَهَـا طَعِـينٌ كـأنَّ قَنَـا قَوَارِسـهَا ثُمَـام

إنها رماح الأعداء تقترن بخيولهم وتمثل صورة الضعف والتخاذل والانكسار إن الخيول لا يخر لها طعين ، لأن فرسانها يطعنون طعنا لا يؤثر فى المطعون لضعفهم فكأن رماحهم التى يطعنون بها نبت الثمام فى ضعفه ، ولينه ، وعدم أثره .

تصوير بحيرة طبرية :

صورها الشاعر تصويرا استلهم معه خياله البدوى من خلال الشعور الحربى . وتحدث عن الأمواج وارتطامها ، والفحول وهديرها ، والطيور ورفرفتها ، والبحيرة واصطفاق أمواجها ، والجنات وألوانها وذلك فى قوله[2] :

لـولاك لـم أتـرك البحيـرة والـ غـور دفـئ وماؤهـا شـبم
والمَـوْجُ مِثْـلُ الفُحُـولِ مُزْبِـدةً تَهْـدِر فِيهَـا وَمَـا بِهَـا قَطَـمُ
والطَّيْـرُ فـوق الحَبَـابِ تَحْسِـبُها فُرسَـانَ بُلـقَ تَخُونُهـا اللُّجُـمُ
كأنَّهـا والرِّيَـاحُ تَضْـربُهَا جَيْشَـا وَغَـى هـازُم ومنهـزِمُ
كأنَّهـا فـي نَهارِهَـا قَمَـرٌ حَـفَّ بِـه مِـن جِنانهـا ظُلَـمُ

---

(١) الديوان ٤/٧١ .

(٢) المرجع السابق ٤/٦٦ ، ٦٧ .

نَاعَمِـــةِ الجِسْـــمِ لاَعِظَـــامٍ لَهَـــا لَهـــا بَنَـــاتٌ ومالهـــا رَحِـــمُ
يُبْقَـــرُ عَـــنْهُنَّ بَطْنُهَـــا أَبَـــدًا ومـــا تَشَـــكَّى ولا يَسِـــيلُ لَهَـــا دَمُ

فالشاعر فى طريقه إلى ممدوحه على بن إبراهيم التنوخى بعد أن أقام فى طبرية وشاهد بحيرتها واستهواه ماؤها البارد فى شدة الحر والذى لولا الممدوح ما تركها وغادرها ، مما يشير إلى طيب الإقامة عندها كما أشار هو فى البيت الأول .

وفى البيت الثانى : يصور موج البحيرة ويصف أثره فى نفسه وهو يتدافع إلى الشاطئ ، ويتكسر ، ويتتابع بعضه فى أثر بعض ويصور هديره بهدير الفحول من الإبل بين النياق من غير شهوة للضراب (وهو معنى : وما بها قطم) والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه هدير الموج بهدير الفحول فى الصوت وشدته .

وفى البيت الثالث : يتخيل الشاعر فى سبح الطير فوق السحاب ، وتحوامها على الماء غادية رائحة أفراسا بُلْقًا خرجت من أعنتها ، ولجمها إن الخيول هنا قد خرجت من أعنتها بعد أن ركضها فرسانها بأرجلهم فهى تذهب حيث تشاء ، وتجرى كما تشاء بعد أن فقدت السيطرة عليها . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه رفرفة الطير ، وتحوامها على الماء مضطربة ذاهبة كل مذهب بفرسان بُلق خرجت من أعنتها بعد أن ركضها فرسانها فهى تذهب حيث تشاء . ووجه الشبه بين الطرفين هو هذه الحركة المضطربة .

وفى البيت الرابع : يستحضر الشاعر نزالا وطعانا بين جيشين فيهما هازم ومهزوم وضارب ومضروب إن الرياح تضرب الطير وهى تمضى فى رفرفتها على صفحة الماء يتبع بعضها بعضا . أو تضرب الطير والموج فيتتابع الطير على أثر الموج . إن ضرب الرياح للموج يجعله يصطفق على إثره ويتباعد ثم يعود من جديد وهكذا فى تتابع وتوال ، ومع هذا الضرب من الرياح تضطرب الطير ويتبع بعضها البعض الآخر إذا ضربتهما الرياح بجيشين يتبع الهازم فيهما المهزوم ووجه الشبه هو التتابع والتوالى .

وفى البيت الخامس : يصور الشاعر ماء البحيرة نهارا فى صفائه ونقائه وضيائه يحيط به الزرع فى خضرته الداكنة المائلة إلى السواد بصورة القمر المتألق وسط الظلام . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه ماء البحيرة فى صفائه وقد أحاطت به

البساتين فى خضرتها الداكنة الضاربة إلى السواد بهيئة قمر محفوف بالظلام ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود شيء أبيض يحف به ويحيطه شيء أسود .

وفى البيت السادس : وصف البحيرة بأنها ناعمة الجسم ، ولا عظام لها . (ولها بنات كناية عن السمك ، ولما جعلها ناعمة الجسم ولها بنات كنى عن استخراج ما فيها من الحيوان بالصيد بالبقر وهو الشق كما فى البيت السابع : إن تصوير البحيرة هنا يغذيه الشعور الحربى من خلال توضيح المشبه بالمشبه به . إن هدير الفحول من الإبل بين النياق وتلك الخيول المضطربة بعد أن فقد فرسانها السيطرة على حركتها على أثر خروجها من لجمها وجيشى الوغى الهازم والمهزوم وكلها مشبهات بها غذى بها الشاعر إحساسه بجو القتال والمعارك . الذى يستبد به دوما ويسيطر عليه أبدا .

إن الشاعر فى تصويره لماء البحيرة وسط المزارع بالقمر وسط الظلام لعله كان يرى فيه مثالا لنفسه ورمزا لها . ولاحظ أن الشاعر قد أنشد شعره وهو فى طريقه إلى ممدوحه الذى يريد أن يحتل مكانا عنده . ويريد أن يشرح له ما لقيه فى سبيل الوصول إليه من مشقات ومرهقات فالقمر مثال للشاعر : والظلام رمز لما لقيه . وهو بصدد الحضور إليه من تعب مرهق وبذلك يضمن له مكانا طيبا فى رحابه ، ويحقق عنده ما يصبو إليه من مطامع ورغبات وأمنيات .

تصوير المعارك الحربية :

أجاد المتنبى وصف الجيش ومعارك الحرب إذ غشى ميادينها ، وشاهدها فصورها وأحسن تصويرها ، ولقد وقفت وأطلت الوقفة أمام تصويره لها فى مكان آخر من هذا البحث وأنا أتكلم عن الحركة فى صوره التشبيهية وانظر إليه وهو يصور الطراد بين جيش سيف الدولة ، وانهزام الخارجين عليه من بنى عقيل وغيرهم فى قوله[1] :

تُثِيرُ عَلَى سَلَمْيَةَ مُسْبَطِرًّا ... تَنَاكَرُ تَحْتَهُ لَوْلاَ الشِّعَارُ

عَجَاجَا تَعْثُرُ العِقْبَانُ فِيهِ ... كَأَنَّ الجَوَّ وَعْثٌ أَوْ خَبَارُ

---

(١) الديوان ٢/١٠٣ .

وظَـلَّ الطَّعْـنُ فِـي الخَيْلَـينِ خَلْسًـا كَـأَنَّ المَـوْتَ بَيْنَهُمَـا اخْتِصَـارُ
فلَـزَّهُم الطِّـراد إِلَـى قِتَـالٍ أَحَـد سِـلاَحِهِمْ فيـه الفِـرَارُ
مَضَـوْا مُتِسَـابِقِى الأَعْضَـاءِ فِيـه لأَرْؤُسِـهم بِـأَرْجلِهِم عُثِـارُ

ففى البيت الأول : يكنى عن كثرة خيل سيف الدولة ، ويتحدث عن حركتها الرهيبة التى تطوى الأرض ، وتثير النقع الذى يزحم الأفق ، ويسد مطالع الضوء . ويكاد يختفى فى زحمته الجيش المتحرك لولا ما يلبسه الفرسان من علامات توضحهم وتدل عليهم .

وفى قوله فى البيت الثانى : عجاجا تعثر العقبان فيه كناية عن كثرة الغبار الذى تثيره حوافر الخيول . فهو كثيف لدرجة أن العقبان التى تحوم فوق الجيش ، وتحلق تكاد تغوص فيه فتعثر لكثرة ما ارتفع منه لقد تحول الغبار فى خيال الشاعر إلى سهل كثير الرمل (وعث) أو أرض رخوة لينة (خبار) ، والتشبيه فى البيت ينعقد من خلال تشبيه الجو الذى امتلأ بالعجاج بالسهل الكثير الرمل أو بالأرض الرخوة اللينة . ووجه الشبه بين الطرفين هو الحال والصفة وأنت تستطيع من خلال هذا التصوير البيانى أن تتخيل صورة هذا الجيش التى تثير حركة خيوله كل هذا الغبار المنعقد فوق الرءوس من كثرة فى العدد وقوة فى الحركة . مما يعكس نفسية المقاتلين وما هم عليه من شوق إلى لقاء عدوهم لتأديبه وتلقينه ما يستحق من دروس .

وفى البيت الثالث : تكنية عن شجاعة المقاتلين وعدم مبالاتهم بالموت فهم يقتحمون الأهوال مختلسين للطعن اختلاسا كما أن فيه تشبيها ينعقد من خلال تشبيه الموت بمن يختصر الطريق إليهم ووجه الشبه هو السرعة أو تشبيه الموت فى عدم مبالاتهم به وعدم حسبانهم له بالشىء المختصر المستصغر فى قلة الشأن وعدم الاهتمام .

وفى البيتين الرابع والخامس : تكنية عن شدة اضطرابهم حين لاذوا بالفرار . فأرجلهم تعثر من أجل حفظ رءوسهم . فهم ينهزمون فيسرعون ويعثرون . ثم يصور أثر الهول الذى حاق بهم من مهانة وضعة . لم تبق الرجل ، ولا المرأة

ولا الصبى . فسروجهم سقطت من على خيولهم ، ونساؤهم المردفات على الخيل قد أرهقت ، والأصيبية الصغار قد داستها سنابك الخيل فى قوله[1] :

وجـاءوا الصَّحْصـحَان بـلا سُـروجٍ وقـد سَـقَط العِمَامـةُ والخِمَـارُ

فأُرْهِقَـت العَـذَارى مُرْدَفَـاتٍ وأوطَئِـت الأُصَـيبيةُ الصِّـغَارُ

فالسروج سقطت من على خيولهم وفى قوله : وقد سقط العمامة والخمار كناية عن الرجل والمرأة وفى قوله : وأرهقت العذارى . . . إلخ ، كناية عن الشدة وسوء الحال والسرعة فى الهروب والفرار هذه السرعة التى جعلت العذراء تركب خلف الفارس والصبية يلقى بها تحت سنابك الخيل ، وتترك طلبا للنجاة .

ثم يبين أن الجيش المنسحب المهزوم لم يكن جيشا متهافتا ضعيفا حتى لا يكون هناك فضل كبير للجيش الغالب وإنما هو جيش قوى فرسانه كالأسود التى فقدت صولتها وخيوله كالطير التى فقدت قدرتها على الطيران فلم يعد لجيش العدو حول ولا قوة أمام بأس الممدوح وقوة جيشه وفى قوله (طير) استعارة تصريحيه حيث شبه إسراع الخيل بالطير فى شدة العدو وحذف المشبه واستعار المشبه به للمشبه على سبيل الاستعارة التصريحيه الأصلية وذلك فى قوله[2]:

وكـانُوا الأُسْـدَ لَـيْسَ لَهَـا مصَـالٌ علـى طَيـر وَلَـيسَ لَهَـا مطَـارُ

ثم يبين مآل الهاربين من جيش العدو ولقد ابتلعتهم الصحراء ، وغابوا فى أعماق القفار ، ومن فاته الموت برماح الجيش تناولته رماح العطش فمات فى قوله[3]:

إذَا فَـاتَوا الرِّمَـاحَ تَنَـاوَلَتْهُم بأرمـاحٍ مِـنَ العَطَـشِ القِفَـارُ

فهو يشبه فعل العطش بهم بفعل الرماح فى الإهلاك والإبادة ومما يتصل أيضا بتصوير حركة الجيش السريعة ، وما يدل على كثرته هذا النقع الذى يغتال ضوء النهار فى قوله[4]:

والباعـثُ الجَيْشَ قَـدْ غَالَت عُجَاجَتُه ضَـوء النَّهـارِ فَصـار الظُّهْـرُ كالطَّفَـلِ

الجـوُّ أضـيق مـا لاَقَـاهُ سَـاطعُها ومُقْلَـةُ الشَّـمْسِ فِيـه أحْيَـر المُقَـل

---

(١) الديوان ١٠٦/٢ .
(٢) المرجع السابق ١٠٧/٢ .
(٣) المرجع السابق ١٠٧/١ .
(٤) المرجع السابق ٣٧/٣ ، ٣٨ .

إن الجيش هنا كثير العدد ، وإن تحركه يثير الغبار الذى يغتال ضوء النهار ، وينتقص منه حتى ليصير وقت الظهر فى إشراقه وضيائه كوقت الغروب فى لونه ، وعدم ضوئه ، والبيت كناية عن كثرة الجيش وسرعة حركته وفى الفعل (غال) استعارة تبعية بتشبيه طمس ضوء الشمس بالغول فى عدم الظهور وقد حذف المشبه وتنوسى التشبيه واشتق من الغول (غال) على سبيل الاستعارة التبعية والتشبيه الذى فى البيت يقوم من خلال تشبيه وقت الظهر وقد ستر وضوحه غبار الجيش بوقت الغروب فى لونه وعدم ظهور ضوئه .

وقد يتوسل بالصورة البيانية فى وصف جيش الأعداء الذى أوقع به سيف الدولة وهزمه شر هزيمة فيقول[1] :

أتـوكَ يَجُـرونَ الحَديـدَ كـأنَّهُم ... سَـرَوْا بِجِيَـادٍ مَـالَهُنَّ قَـوائِمُ
إذَا بَرَقُـوا لَـمْ تُعـرفِ البِـيضُ مِـنْهمُ ... ثِيـابُهُم مِـن مِثْلهـا والعمـائم
خميسٌ بِشَرْق الأرضِ والغربِ زَحْفُهُ ... وفـي أُذُنِ الجَـوْزاء مِنْـه زُمـازِمُ
تَجَمَّـعَ فِيـه كُـلُّ لِسـنٍ وأَمّـةٍ ... فمـا تُفْهِـمُ الحـداث إلا التَّـرَاجم
فللّـه وَقْـتٌ ذوب الغِـشَّ نَـارُه ... فَلَـم يَبْـق إلا صـارم أو ضـارم
تَقَطَّـعَ مـاَلاَ يقطـع الـدِّرْع والقَنَـا ... وَفـرَّ مَـنِ الأَبْطـالِ مَـنْ لا يُصَـادم

فجيش الأعداء جاء على هذه الصورة . فرسانه قد لبسوا الحديد ، وجياده قد لبست التجافيف ، فاختفت بسببها قوائمها . وأصبحت غير مرئية حتى لتكاد تظهر بلا قوائم ، والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه خيول الأعداء وقد حجبت بالتجافيف التى وضعت عليها فحجبت قوائمها بالخيول التى تسرى بلا قوائم ووجه الشبه هو عدم رؤية القوائم فى كل .

والتشبيه بصورته تلك يضع جيش الخارجين على سيف الدولة فى صورته الراعدة الرهيبة فإذا ما حقق الممدوح عليه نصره الساحق كان ذلك تأكيدا لقدرته وقوته . وبذلك تؤدى الصورة وظيفتها من الإشادة بسيف الدولة ، وترتبط بالسياق العام للقصيدة ارتباطا واضحا ، وانظر إلى جيش العدو وهو يبرق ، ويلمع لكثرة

---

(١) الديوان ٣/٣٨٤ .

ما عليه من الحديد الذى يتترس به ويتدرع حتى صار لباسه الذى على جسده سيوفا لماعة براقة وعمائمه خوذا ومغافر وذلك فى البيت الثانى :

إذَا بَرَقُوا لَمْ تُعرفِ البِيضُ مِنْهمُ ثِيابُهُم مِن مِثْلها والعَمَائِمُ

وواو الجماعة فى قوله «برقوا» عائدة على الروم والضمير فى قوله «من مثلها» عائد على قوله : البيض «السيوف» والتشبيه ينعقد من خلال تشبيهه ثياب جيش الروم بالسيوف فى أن كلا منهما من الحديد وتشبيه العمائم بالخوذ فى ذلك أيضا .

وفى البيت الثالث :

خميسُ بِشَرْق الأرضِ والغربِ زَحْفُهُ وفي أُذُنِ الجَوْزاءِ مِنْه زُمازِمُ

تأمل هذا الجيش العظيم فى كثرته الكثيرة،وعدده الرهيب الذى لا يحصيه العد، ولا يحيط به الحصر ، وهو يتقدم بميمنته ، وميسرته ، وقلبه ، وجناحيه فى زحف يعم الشرق والغرب ، وأصوات للجنود تخترق الحُجُب اختراقا ، وتشق الفضاء شقا . حتى لتصل إلى مسامع الجوزاء منها زمازم لا تفسر ، وأخلاطا لا تبين . وأنت ترى الاستعارة تطل عليك من خلال هذا التشخيص للجوزاء الذى جعل منها أَناسِيَّ تعقل ، وتسمع ، وتدرك ثم جرى الخطاب معها على هذا الأساس فكان تشبيه الجوزاء بالإنسان واستعارة لفظ الإنسان لها ثم حذفه ، والرمز إليه بشىء من لوازمه وتوابعه وهو الأذن على سبيل الاستعارة بالكناية .

وفى البيت الرابع :

تَجَمَّعَ فِيه كُلُّ لِسنٍ وأَمَّةٍ فما تُفْهِمُ الحداث إلا التَّرَاجِمُ

تبصر الألسنة المتباينة ، والأمم المختلفة التى نادى بعضها بعضا واجتمعت فى هذا الجيش الذى استحال التفاهم والتخاطب بين أفراده وتَعذّر إلا بوجود الترجمان وفى هذا كناية عن عظم الجيش واختلاف لغات مقاتليه وليس بخاف أنه إذا فسر اللسن بمعنى اللسان فيكون هنا مجاز مرسل حيث عبر باللسن وأريد اللغة لأن اللسان آلتها فتكون العلاقة الآلية .

وفى البيت الخامس :

فللّه وَقْتٌ ذوب الغِشِّ نَارُه فَلَم يَبْق إلا صارم أو ضبارم

ترى كيف كانت ضراوة المعركة تلك التى كشفت كل شىء حيث تلاشى المغشوش وتطاير ، كما تتطاير قطرات الندى اللماع وتفنى فى عرض الأثير تحت أشعة الشمس الحارقة . ولم يصمد فى هذا الجو الرهيب إلا الصناديد من الأبطال ؛ وإلا الصوارم من السيوف ، وأنت تقف أمام هذه العبارة (ذَوَّبَ الغشَّ ناره) فلا يمنعك السياق من أن تفهم أن المقصود (بالغش) فيه (الضعفاء من الرجال والسيوف) فتكون الكلمة كناية عن موصوف فإذا تأملت الفعل « ذوّب» لم يستعص عليك ما يوحى به إليك من انتهاء كل شىء وعدم بقاء أى شىء ، إن كل شىء مغشوش قد ذاب ، فنى وضاع ، وتطاير ، وتلاشى .

وفى البيت السادس :

تَقَطَّعَ مالاَ يقطع الدِّرْع والقَنَا وَفرَّ مَنِ الأَبْطالِ مَنْ لا يُصَادم

تأكيد لما سبق فى البيت السابق من أنه قد تهشم ، وتكسر من السيوف ما كان مغشوشا ضعيفا . وما عجز عن أن يهشم ويكسر الدروع والقنا . وفر من ميدان المعركة الضعيف الذى لا قدرة له على الاستمرار فى غشيان مخاطرها ، وأهوالها فيكون فى الحكم بالفعلين : « تقطع وفر على « ما لا يقطع الدروع» ومن لا يصادم كناية عن الضعيف فى كل محكوم عليه فيهما .

على أنه لا يتأبى على الفهم أن يكون المراد بيان أن المعركة كانت شرسة ضارية لم يصمد فيها سوى السيوف الصوارم ، والفرسان المغاوير وعليه فيكون تقطع : بمعنى تفرق فى قوله : « تقطع ما لا يقطع الدروع» . أى تفرقوا فلم يبق إلا ماض صارم ، أو أسد ضبارم . ومن ثَمَّ فلا يتعذر جريان الاستعارة فى الفعل « تقطع» على هذا الفهم ويكون قد شبه التفرق بالتقطع بجامع إزالة الاتصال فى كل حذف المشبه بعد تناسى التشبيه واستعير المشبه به للمشبه واشتق من التقطع بمعنى التفرق تقطع بمعنى تفرق على سبيل الاستعارة التصريحيه التبعية . .

وفى الوقت الذى يرسم هذه الصورة للجيش تراه يولى وجهه شطر القائد سيف الدولة فى وقت الحرب والشدة حين يستبد الخوف بالقلوب ، ويسيطر الهلع على المشاعر ، فيراه رابط الجأش ، ثابت الجنان ، أسد القلب لا يأبه بالموت الذى يحيط

به ويتخطف الناس من حوله فلا يعيره بالا وكأنه قد أخذ عليه عهدا ألا يقربه فهو آمن منه فيقول[1] :

وَقَفْتَ ومَا فِي المَوْتِ شكٌّ لِوَاقِفٍ كأنك فى جَفَنِ الرَّدى وهُو نَائِمُ
تمرُّ بِكَ الأَبْطَالُ كَلْمِى هزيمةً وَوَجهُك وضاحٌ وثَغْرُكَ بَاسِمُ

والتشبيه فى البيت الأول : يقوم من خلال تشبيه صورة القائد فى وقفته الشجاعة والموت يظله ، ويحيط به من كل مكان ، وهو لا يأبه به ، ولا ينخلع فؤاده من شدة هوله ، وكثرة مصارعه .. بمن أحاط به جفن الردى النائم من كل اتجاه فلم يبصره ، وغفل عنه بالنوم فسلم وأمن ووجه الشبه بين الطرفين هو القرب الشديد من مواطن الخطر والهلاك ثم النجاة منهما .

وفى البيت الثانى : ترى ابتسامة الظفر ترتسم على ثغر القائد ، وإشراقة النصر يتلألأ بها وجهه الصبوح المتهلل بعد أن رأى عاقبة أعدائه وهم يمرون أمامه فى خزى وانكسار تفهق جراحهم بالدم ، وتنضح بالألم وفى البيت كناية عن الظفر والنصر ثم يصور صنيع سيف الدولة بأعدائه فيقول[2] :

ضَمَمْتَ جَنَاحَيْهِم على الْقَلْبِ ضَمَّةً تَمــوتُ الخَــوافى تَحْتَهــا والقَــوَادِمُ
بضَربٍ أَتَى الهَامَاتِ والنَّصْرُ غائبٌ وَصَــار إلــى اللَّبَّــات والنصــرُ قَــادِمُ

فأنت ترى الشاعر قد صور الممدوح فى البيت الأول وهو يجهز على عدوه إجهازا ، ويقضى عليه قضاء حين ضم ميمنة الجيش إلى ميسرته على قلبه فى ضمة خانقة قاتلة لا تبقى على شىء ، ولا تذر . وفى البيت استعارة تصريحيه أصلية لا يستعصى إجراؤها حيث شبه جانبا الجيش بالجناحين بجامع الهيئة فى كل واستعير المشبه به (الجناحان) للمشبه جانبى الجيش ولما أطلق الجناحين على جانبى الجيش ، فإنه جعل القوادم والخوافى . رجال هذا الجيش وفرسانه .

وفى البيت الثانى :

بضَربٍ أَتَى الهَامَاتِ والنَّصْرُ غائبٌ وَصَــار إلــى اللَّبَّــات والنصــرُ قَــادِمُ

تأخذك رهبة جبارة من صورة هذا الضرب الذى تحقق على أرض المعركة والذى حسم نتيجتها فى لحظات إنه صعق جيش العدو الذى ضم ميمنته إلى

---

(١) الديوان ٣/٣٨٦ ، ٣٨٧ .
(٢) المرجع السابق ٣/٣٨٧ ، ٣٨٨.

ميسرته على قلبه واعتصره اعتصارا بهذا الضرب الذى أتى على كل شىء وأحرز نصره الساحق من خلال التصوير بالكناية فى البيت عن سرعة الهزيمة التى أثمرت سرعة النصر .

ثم يصور صنيع سيف الدولة فى أعدائه بعد أن اختصر القتل أعمارهم اختصارا فيقول [1] :

نَثَـرْتَهُم فَـوق الأحَيـدِبِ نَثْـرَةً كَمَـا نُثـرَتَ فَـوْق العـروسِ الـدَّرَاهِمُ

وانظر إلى ما فعله جيش سيف الدولة بخصومه وإن كان قد أسند الفعل إليه ، لأنه الآمر بذلك ، ثم انظر كيف حقق بناء التشبيه على الاستعارة هنا من رسم صورة هؤلاء القتلى ، وما آلت إليه جثثهم التى مزقت تمزيقا وفرقت تفريقا على جبل الأحيدب الذى دارت حوله الموقعة. إن النثر إنما يكون للدراهم والدنانير ولا يكون للأجساد ولا للرءوس التى يكون من حظها التفريق والتوزيع ولكن التصوير بالاستعارة يبين لك كيف تحكم الرجل فى أعدائه قتلا وتنكيلا وكيف قطع أجسادهم قطعا صغيرة حتى لتكاد تحفن باليد ثم تنثر على الأرض من خلال تشبيه تفرق الأجسام الكبار بتفرق الأجسام الصغار بجامع التساقط ، والتوزيع فى كل واستعير النثر للتفرق واشتق منه الفعل نثر لفرق استعارة تبعية والتشبيه الصريح فى البيت يقوم من خلال تشبيه قتل الأعداء وتفريقهم فوق جبل الأحيدب بتفريق مواقع الدراهم إذا نثرت فوق العروس ووجه الشبه هو التساقط على غير نظام والتشبيه بصورته تلك يحكى الحالة النفسية للجيش وقائده ، الذى يرى فى تقطيع الأجسام ، وجذ الرقاب وفصل الرءوس عن الأجساد ، وبعثرتها ، وتفرقها صورة من نثر الدراهم والدنانير فى يوم الزينة فوق العروس . إن نشوته بإعمال القتل وتقطيع أجساد أعدائه ورؤيته للدم المتدفق فى غزارة تعدل نشوته وتساويها وهو ينثر الدراهم والدنانير فوق رأس العروس والأحباب فى مهرجان الفرح وفى حفل الزفاف ، وتستطيع أنت رؤية هذا الموقف يتردد كثيرا فى أشعار الرجل حيث ينقل جو النشوة ، والخفة ، والفرح ، والعشق إلى أجواء المعارك والحروب كما فى قوله[2]:

شُـجَاعٌ كـأنّ الحَـرْب عَاشِـقَةٌ لَـهُ إذا زَارهَـا فدَّتْـه بالخِيـل والرَّجْـلِ

---

(١) الديوان ٣٨٨/٣ .

(٢) المرجع السابق ٢٩٨/٣ .

وَرِيـأَنُ لا تَصْـدَى إلـى الْخَمْـر نفْسُـه وعطشـانُ لاَ تـروى يـداه مِـنَ البَـذلِ

وقف أمام تلك الحرب العاشقة وما جرى فيها من تشخيص جعل الشاعر يستنطقها أخبارها حين يزورها وانظر إلى قوله : إذا زارها . . . . . واستخدم « إذا » فى التعبير وإيثار هذا اللفظ على « إن » لما تفيده فى الأداء البلاغى من أنها إنما تستعمل مع الأمر المقطوع فيه الذى لا شك يحوم حوله على خلاف « إن » مما يقتضى وصفه بالشجاعة فزيارته للحرب مقطوع بها وتفدية الحرب له إنما تكون بما يغنمه من خصمه من الخيل وبما يريقه من دماء أعدائه ومناوئيه وفى تصوير الحرب بأنها عاشقة متلهفة ما يجعلك تتوقف أمام هذا التخييل الجميل حين ترى الحرب عاشقة لهذا الفارس الشجاع وتشعر أنه معشوق وعاشق فى آن واحد ، على أن هناك تشبيها اصطلاحيا جرى بين تشبيه الحرب بالعاشقة ، فى استلذاذ النفس لهما ومتعته بكل منهما والتصوير البيانى على هذا النحو يحكى الجو النفسى الذى يملأ صدر الشاعر ، ويغمغم فى وجدانه وأعماقه حيث يرى فى جو المعارك السبيل إلى تحقيق الآمال والرغبات لذا تتحول ميادين القتال فى خياله إلى أجواء فرح ومواقف عشق وغرام ، وكثيرا ما يستبد به هذا الشعور ويستولى عليه هذا الإحساس فيرى فى السيوف والرماح الذى يقتل ويطعن بها الفرسان الشجعان ما يراه فى الفرسان أنفسهم من النشوة ، والخفة ، والطرب ، فيزاوج بينها وبينهم ويخلع مشاعر حملة السيوف والرماح على السيوف والرماح ويقيم هذه العلاقة التبادلية بينهما على هذا النحو كما فى قوله[1] :

تَبِيـتُ رِمَاحُـه فـوق الهَـوَادِى وقـد ضـرب الْعَجَـاجُ لهـا رَوَاقـا

تَمِيـلُ كـأنّ فـى الأَبْطـالِ خَمْـرًا عُلِلْـنَ بِهَـا اصْـطِباحاً واغتباقَـا

فأنت تراه فى البيت الأول يتحدث عن رقته ، وحيطته ، وحذره فى سُراه إلى عدوه إذ إنه يسير ليلا ورماح جنوده تبيت فوق أعناق خيله خشية المباغتة والمفاجأة والعجاج الذى تثيره حوافر الخيول فى زحفها يضرب ستارا كثيفا على الجيش .

---

(١) الديوان ٢/٣٠٠ ، ٣٠١ .

وإذا كان النقع المثار من أجل زحف الجيش وانطلاقه قد ضرب هذا الرواق وأقامه فمعنى هذا أنه نقع كثير أثاره جيش كبير فهو كناية عن كثرة الجيش .

وفى البيت الثانى نتوقف أمام الرماح وقد اعترتها هزة الطرب ، وخفة الفرح . فهى لدنة طرية تميل من لينها بسبب اصطباحها ، واغتباقها من دماء الأعداء وريها من مناهلهم . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه لين الرماح ، وتمايلها ، واضطرابها لسكرها من دماء الأعداء بتمايلها وسكرها من الخمر فى النشوة والمتعة والبيت كناية عن كثرة الغارات وتلاحقها وتتابعها .

وقد يصور صنيع الخيل وهى على قمة الذرا وعلى متنها سيف الدولة ليرى كيف غدت جثث خصومه طعاما شهيا للنسور والعقبان فى قوله[1] :

تَدُوسُ بِكَ الخَيلُ الوُكُورِ عَلِى الذُّرَا ... وَقَد كَثُرتْ حَول الوكور المَطَاعِمُ
تَظُنُّ فِراخُ الفَتْخ أَنكَ زُرتَهَا ... بأُمَّاتِهَا وهَىَ العِتاقُ الصَّلادِمُ
إذَا زِلَقَت مِثْيَتَهَا بِبُطُونِهَا ... كَمَا تَتَمشَّى فِي الصَّعيدِ الأَرَاقِمُ

فأنت ترى تلك الحركة القوية الشديدة للخيول وهى تمضى وراء العدو وتطارده حتى تصل إلى أعلى قمم الجبال فتقضى عليه بعد أن تتبعه هناك وتدرس جثث القتلى التى اتخذت منها جوارح الطير موائد شهية ومطاعم لذيذة تجمعت حولها . وعليها وأظن أن الكناية فى البيت عن تتبع سيف الدولة لأعدائه وشدته عليهم حتى ولو كانوا فى رءوس الجبال . وكثرة القتلى من خصومه فى قوله :

« وقد كثرت حول الوكور المطاعم » أوضح من أن يشار إليها .

وفى البيت الثانى :

تَظُنُّ فِراخُ الفَتْخ أَنكَ زُرتَهَا ... بأُمَّاتِهَا وهَىَ العِتاقُ الصَّلادِمُ

تصوير لفرح تلك الطيور التى أبصرت سيف الدولة بخيوله على هذا النحو فظنت أنه إنما أتى لها بأماتها الشديدة القوية فكانت فرحتها بها غامرة فهو كناية عن فرح تلك الطيور بأمهاتها التى ستقدم لها المطاعم والمشارب .

---

(١) الديوان ٣٨٨/٣ .

وفى البيت الثالث :

إذَا زِلَقَـــت مشّـــيْتَهَا بِبُطُونِهَـــا كَمَـا تَتَمشَّـى فـِي الصَّـعِيدِ الأَرَاقِـمُ

تصوير لقدرة سيف الدولة وبراعته فى الوصول إلى خصمه مهما كانت العوائق والعقبات فهو ذكى واسع الحيلة قوى شديد القوة أن خيله إذا عاقها الصعود إلى قمم الجبال يزَلِّقها ، فلأنها مرنة مدربة يجبرها على أن تغير من طريقتها فى الصعود ويجعلها تزحف على بطنها ، وتتمشى عليها كما تتمشى الحيات ، والثعابين فى الصعيد . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه زحف الخيول للوصول للقمم العالية ومشيها على بطنها فى ذلك بمشى الحيات فى الصعيد ووجه الشبه هو الهيئة والصورة التى تجمع بين الطرفين وواضح أن الصور تظهر فيها الحركة ظهورا واضحا ، كما أن الصوت كثيرا ما يتعاون مع الحركة فى إبراز الصورة وتمثيلها .

وقد يتوسل بالتصوير وهو يمضى مع سيف الدولة فى معاركه التى يخوضها فيرسم صورة للموقعة وما يجرى فيها من مطاردة ، ويركز عينيه على أشياء يلتقطها . فسيف الدولة لا يسأم من الضراب إذا مّل غيره من السيوف ، لأن همة السيف من همة صاحبه ، ولو تعبت الخيل وعجزت عن حمله فإن همته تحمله إلى حيث يكون أعداؤه فى قوله[1] :

كُـلُّ السـيوفِ إذَا طَـالَ الضِّـرابُ بِهَـا يَمَسُّـهَا غَيْـرُ سَـيفِ الدّولـةِ السـأَمُ

لـو كلَّـتِ الخَيْـلُ حتَّـى لا تَحَمَّلـهُ تَحَمَّلَتـــهُ إلـــى أعدْائِـــه الِهَمـــمُ

ففى البيت الأول : تكنية عن قوة السيف وقوة صاحبه ، وفى البيت الثانى : تكنية عن جلد سيف الدولة وقوة تحمله .

ثم يسخر من البطارقة وهم قواد جيش الروم الذين أقسموا برأس ملكهم ثم حنثوا فى أيمانهم فى قوله[2] :

أيْـنَ البطـاريقُ والحلـف الـذى حَلَفُـوا بمفْـرِقِ المَلْـكِ والـزَّعْمُ الـذى زَعَمُـوا

وفى الزعم كناية عن الكذب .

(٢،١) الديوان ١٦/٤ .

إن سيف الدولة قد جعل سيوفه تتولى مهمة تكذيب البطارقة فيما زعموه من قدرة على التحدى ، وصبر على الملاقاة . وتخبرهم حين تغمد فى جماجمهم بما يعرفونه عنه من شجاعته وإقدامه ، وبما يجهلونه من شدة بأسه وقوته فى قوله[1]:

وَلَّـىَ صَـوَارِمَه إكـذَابَ قَـولِهِمُ فهـن أَلْسِـنَةُ أفْواهِهَـا القَمَـمُ

نَوَاطِـقُ مخبـراتٌ فـى جمـاجمهم عنـه بمِـا جَهِلـوا منـه ومـا عَلِمـوا

ففى البيت الأول : تلمح التشبيه بين مدلول الضمير «الصوارم» وهى تتحرك فى الرءوس فى سهولة ، ويسر ، وبين الألسنة وهى تتحرك فى الأفواه . ووجه الشبه أن كلا منهما يتحرك فيما هو حال فيه فى لين ، ويسر ، وسهولة .

وفى البيت الثانى : ترى تلك السيوف الصوارم وهى تنطق فى جماجم القوم ، وتخبرهم بما غاب عنهم ، وفى البيت استعارة مكنية بتشبيه السيوف بإنسان وحذفه والرمز إليه بما هو من لوازمه ـ النطق والإخبار ـ على أنه يمكن تشبيه الأثر الذى تحدثه تلك السيوف ـ بنواطق ـ ومخبرات فى وضوح الدلالة استعارة تصريحية .

ثم يصور هول المفاجأة ، وقوة المباغته ، وسرعة الحركة إذ لم تكد سروج تستيقظ من نومها وتفتح ناظرها فى الصباح الباكر إلا وكان حين سيف الدولة يحيط بها ويضرب حصارا خانقا حولها ويخترقها من كل اتجاه فى قوله[2]:

فَلَـمْ تُـتِمَّ سُـرُوجٌ فَـتْحَ نَاظِرِهَـا إلا وَجَيْشُـكَ فـى جفنيْـه مُـزدَحِمُ

إنه قد شد عليها هذه الشدة القوية والبيت كناية عن هول المفاجأة وفيه تشبيه مدينة سروج بإنسان قائم من نومه ثم حذف ورمز له بما هو من خصائصه فتح الناظر على سبيل الاستعارة بالكناية ـ ثم ينتقل من (سروج) إلى (حرّان) وبقعتها ليرينا كيف غطاها النقع المثار ، وغطى بقعتها من كثرته وهو يملأ الفضاء وقد يتصعد إلى الأفق الأعلى فيبدو حاجب من الشمس تترقرق صفرته السافرة من خلاله ، وقد يتراكم ويتراكب فتتوارى الشمس محتجبة خلف ستره وملتثمة بنقابه وفى هذا البيت تصوير الشمس بصورة العذراء الفاتنة مع حذف المشبه به والرمز إليه بما هو من توابعه «تسفر وتلتثم» فى قوله :

والنَّقْـعُ يأخُـذُ حرَّانَـا وبُقْعَتَهـا والشَّـمْسُ تُسِـفْرِ أَحْيَانًـا وتَلْتَـثِمُ[3]

---

(١) الديوان ٤/١٦ .

(٢،٣) المرجع السابق ٤/١٨ .

كما يؤكد كثرة الجيش مستعينا بالتصوير البيانى فى قوله[1] :

سُحْبٌ تَمُرُّ بِحِصْنِ الرّانِ مُمْسِكَةٌ ومَا بِهَا البُخْلُ لَوْلاَ أَنَّهَا نقَمُ

سحب : خبر عن محذوف وهو الجيش وعليه فيجوز فيها ما يجوز فى (صم) فى قوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ (البقرة:١٨) فتكون مشبها به المشبه هو مدلول الضمير المحذوف العائد على الجيش فى الكثرة . والجيش الكثير المنتشر الذى يغطى حصن الران (بلاد سيف الدولة) يمسك ما يحمله فلا يضعه ليس من أجل البخل الذى لا يعرفه وإنما لأنه يحمل الدمار ، والهلاك ، والقتل ، والفتك ، وهذه كلها يجب أن تصب على ديار الأعداء ، وأن تحل بها .

وفى تأكيد وصفه للجيش وكثرته تراه يتوسل بالتصوير فى وصف طوله وامتداده فيقول[2] :

جَيْش كأنَك فى أرْضٍ تُطَاوِلُه فالأَرضُ لا أَمَمٌ والجيشُ لاَ أُمَمُ

إذا مَضَى عَلَمٌ مِنهَا بَدَا عَلَمٌ وإن مضَى عَلَمٌ بَدَا عَلَمُ

فالجيش طويل طويل لا تدرك أطرافه كما لا تدرك أطراف الأرض التى تطاوله . فإن كانت جبال الأرض إذا اختفى منها جبل ظهر جبل جديد فإن رايات هذا الجيش كثيرة مما يدل على امتداده ، وانتشاره . إذا مضى منه علم ، بدا علم جديد . . والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه عدم إدراك أطراف الأرض بعدم إدراك أطراف الجيش فى الطول والامتداد وأنت ترى فى كلمة « تطاوله » أن ضمير الرفع (الفاعل) يعود إلى الأرض ، وأن ضمير النصب المفعول يعود على الجيش ، فطول الأرض يشبه طول الجيش ، والجبال على طريق الأرض ، تقابل الرايات على امتداد الجيش والتشبيه على هذه الصورة يصور المبالغة فى طول الجيش وكثرته وامتداده.

ثم يصور وقت تحرك الجيش فيصفه بأنه كان قائظا كاويا لدرجة أن الخيل الشزب قد أشعل القيظ لجمها فأبقت أثرها مثل الوسم على أنوفها وأنها حين وردت الماء اندفعت نحوه مسرعة لتكرع منه قبل أن تنحى لجمها التى سمع لها نشيش فى أشداقها (والنشيش هنا) هو الصوت المنبعث عن غليان الماء فى أشداقها من شدة سخونة الحكم . فى قوله[3] :

(١،٢) الديوان ١٨/٤ ، ١٩ . (٣) المرجع السابق ١٩/٤-٢١ .

وشُـزَّبٌ أحْمَـتِ الشِّـعْرَى شَـكائِمها ... وَوَسَّـمتْها علـى آنافِهـا الحَكَـمُ
حَتّـى وَرَدْن بِسـمِنينٍ بُحَيْرتهـا ... تـنش بالمَـاءِ فـى أشْـدِاقها اللّجُـمُ
وأصْـبحت بِقُـرَى هِنـزيط جائلـةً ... تَرْعى الظُّبا فى خَصِيبٍ نَبْتُه اللِّمَمُ
فمَـا تَـرَكْنَ بَهـا خُلْـداً لـه بَصَـرٌ ... تَحْـتَ التُّـراب ولا بَـازًا لَـهُ قَـدَمُ
ولاَ هِزَبـرا لـهُ مِـنْ دِرِعْـه لِبَـدٌ ... ولِا مَهـاةً لهَـا مِـن شِـبْهِها حَشَـمُ
تَرْمِـى عَلَـى شَـفَراتِ البَـاتِرات بِهِـمْ ... مَكَـامِنُ الأرْضَ والغَيطَـانُ والأُكُـم

فأنت تلمس ـ فى البيتين ـ الأول والثانى كيف مثل التصوير شدة الحر على أنه من الممكن أن يفهم فى قوله : (الشعرى) (فى أحْمَت الشعرى) .

أن هنا مجازا مرسلا علاقته الجزئية لأن الشعرى جزء من كل أشعل تلك الحرارة والكل : هو مجموعة الكواكب الشمسية ويكون فى التعبير بالشعرى مزيد اختصاص لأن هذا النجم إنما يكون فى الصيف القائظ وفى طلوعه شدة الحر فإذا تركت هذين البيتين وذهبت إلى البيت الثالث الذى يقول فيه :

وأصْـبحت بِقُـرَى هِنـزيط جائلـةً ... تَرْعى الظُّبا فى خَصِيبٍ نَبْتُه اللِّمَمُ

راعك هذا التصوير الذى رأيت معه كيف ترعى الظبا فى هذا الخصيب الذى يغريها بالرعى ، ويحضها على أن تملأ أمعاءها من هذه الوجبة الشهية إن السيوف تمتد فتقطف تلك الرءوس قطفا ، وتحصدها حصدا . والاستعارة تتحقق فى تشبيه السيوف بالأبقار التى ترعى مع حذف المشبه به والرمز إليه بشىء من لوازمه .

وفى البيتين الرابع والخامس :

فمَـا تَـرَكْنَ بِهـا خُلْـداً لـه بَصَـرٌ ... تَحْـتَ التُّـراب ولا بـازًا لـه قَـدَمُ
ولاَ هِزَبـرا لـهُ مِـنْ دِرِعْـه لِبَـدٌ ... ولِا مَهـاةً لهَـا مِـن شِـبْهِها حَشَـمُ

ترى كلمة (خلدا) ومعناها : الفأر ترمز إلى الهاربين الفارين من بأس المعركة ، ومن أهوالها الذين يبحثون لهم عن جحور تبعدهم عن الأنظار .

ويختبئون بها وترى كلمة : (البازى) تشير إلى هؤلاء الذى فرُّوا ولاذوا برءوس الجبال وأعاليها ولم يستطيعوا مقاومة هذا الرعب المزلزل وترى كلمة (هزبرا) وهى تشير إلى الفارس المتترس بالحديد والمتدرع بها وترى كلمة «مهاة» وهى

ترمز إلى المرأة الحسناء التى لها من جنسها خدم يخدمونها وهذه كلها استعارات تصريحية لصنوف من البشر وفى البيتين كناية عن أن السيوف لم تبق أحدا إلاّ نالته ووصلت إليه .

ويؤكد عدم جدوى الهرب واستسلام هؤلاء الهاربين الذين رمت بهم مكامن الأرض ، والغيطان ، والأكم على شفرات الباترات القاطعات ليروا مصيرهم الأسود ، وقدرهم المشئوم فى قوله :

تَرْمِـى علـى شَـفَرَات البَـاتِرات بِهِـمُ مَكـامِنُ الأرْضِ والغِيطَـانُ والأُكُـمُ

والبيت كناية عن عدم الجدوى من الهرب وإيثار الاستسلام لأن مكامن الأرض هى التى ترمى بهم على شفرات السيوف .

ثم يبين كيف أنه تتبع من جاوزوا نهر أرسناس واجتازوه إليهم بعد أن سخر منهم لظنهم أن البحر يعصمهم منه ، ويمنعهم عنه مع أن البحر أمام شجاعته فى حاجة إلى من يعصمه هو ويمنعه من بطشه وقهره فى قوله[1] :

وجَـاوَزُوا أرْسَنَاسَـا مُعْصِـمِينَ بِـهِ وَكَيْـفَ يَعْصِـمهُمْ مـاَ لَـيْس يَنْعَصِـم
وَلاَ تَصُـدُّكَ عَـنْ بَحْـرٍ لَهُـمْ سَـعَةٌ وَلاَ يُـرَدّكَ عَـنْ طَـوْدٍ لهُـمْ شَـمَمُ

وفى البيتين : التكنية عن بلوغه إلى ما يبتغى من غير أن يعوقه عائق ، أو يمنعه مانع ثم يصور الموج المذعور الخائف . وصدر خيله تضربه ضربا وتشقه شقا .

وعليها أبطال أشداء فى طريقها إلى من جاوز النهر ومن الأعداء الذين هربوا لتعمل فى رقابهم السيوف وتقضى عليهم وذلك فى قوله[2] :

ضَـرَبْتَهُ بِصُـدُورِ الخَيْـلِ حَامِلَـةً قَومًـا إذا تَلِفُـوا قُـدْ مَـا فقـد سَـلِمُوا
تَجفَّـلَ المـوجُ عـن لبَّـاتِ خَـيْلِهِم كَمَـا تَجَفَّـلُ تَحْـت الغَـارَة الـنَّعَمُ

فالخيل تضرب النهر بصدرها فى عبورها إلى عدوها تحمل على متنها فرسانا أقوياء لا يرهبون الموت ، ولا يكترثون بالمخاطر وإنما يدركون أن التلف فى الإقدام سلامة .

---

(٢٠١) الديوان ٤/٢١ .

وفى البيت الثانى : يتحدث عن الأمواج المتلاطمة . التى تفر مسرعة هاربة . أمام لبات خيول الجيش وهى تشقها شقا ، وتمخرها مخرا فى ذعر وخوف مثلما تفعل الأنعام أمام الغارة فتسرع فى الفرار والهروب إلى كل اتجاه والتشبيه فى البيت يقوم من خلال تكسر الأمواج وسرعتها فى الذهاب حين ترتطم بلبات الخيل وهى تعبر النهر بإسْرَاع النّعم الخائفة المذعورة تحت وقع الغارة المرعبة وتوزعها . فى وجه شبه هو التفرق على غير هدى والسرعة فيه مع الارتباك والخوف .

ثم يصور «تل بطريق» حين عبر إليها تقدم قومه وما صنعه بها لقد حولها إلى رمم بالية وحمم محروقة بعد أن بطش بأهلها وحرق دورهم ومساكنهم فى قوله[1]:

عَبَـرْتَ تَقـدُمُهُمْ فِيـه وفِـى بَلَـدٍ سُـكَّانُه رِمَـمٌ مَسْـكُونها حُمَـمُ

وَفـي أَكُفِّهِـمُ النَّـارُ التِّـي عُبِـدَتْ قَبْـلَ المَجُوسِ إلـي ذَا اليـومِ تَضْـطرِمُ

فإذا كانت (تَلّ بِطْرِيق) تلك القرية قد أصبحت أثرا بعد عين . سكانها قتلى ، وبيوتها حرقى فى البيتِ الأول فإن جنود سيف الدولة الظافر المنتصر تحمل فى أكفها السيوف التى اشتملت بها وفى كلمة النار استعارة تصريحية أصلية بتشبيه السيوف بالنار فى التوهج والإهلاك واستعار المشبه به للمشبه .

ثم يبين أن هذه السيوف التى هى كالنار ترفع من تشاء ، وتضع من تشاء وأن سيف الدولة قاسمها «قريةَ تَلّ بِطريق» فكان من نصابها الرجال الذين قتلتهم وأخذ هو الأطفال والنساء سبايا فى قوله[2]:

هِنْدِيـةٌ إنْ تُصَـغِّرْ مَعْشَـرا صَـغُرُوا بِحَـدِّها أو تُعَظِّـمْ مَعْشـرا عَظُمُـوا

قَاسَـمْتَها تَـلّ بِطْرِيـقٍ فَكَـانَ لَهَـا أبْطَالُهـا ولَـكَ الأطفـال والحُـرمُ

وذلك تصوير للسيوف يتضح من خلاله أنها الآمرة الناهية .

وأن الأسرى من النساء والأطفال قد أخذهم إلى السفن التى نقلتهم إلى مكان جديد وقد مضت تمخربهم عباب الماء الذى يتطاير نضحه على مقدمتها . وفوارسها (هم وهم وركابها يجلسون فى بطنها ، ولا يمتطون ظهرها . وبحارتها مجهدون متعبون مكدودون أما هى فلا تشكو وجعا ولا تحس بألم وذلك فى قوله[3]:

تَلْقَـى بِهِـمْ زِبَـد التَّيَّـار مقربـةٌ عَلـى جَحَافِلِهـا مِـنْ نَضْـحِه رَثَـمُ

---

(١) الديوان ٤/٢١ . (٢) المرجع السابق ٤/٢٢ .

(٣) المرجع السابق ٤/٢٣ .

دُهْـمٌ فَوَارِسُـهَا رُكَّـابُ أبْطُنِهَـا مَكْـدُودَة وبقـوْم لأبهـا الأَلَـمُ
مِـنَ الجِيَـادِ التِـى كِـدْت العَـدُوّ بِهَـا وَمَالَهـا خِلَـقٌ مِنْهـا ولا شِـيَمُ

ومقربة فى البيت الأول : الخيل المدناة من البيوت لكرمها ، وإعدادها للغارة وجحافلها استعملت على أصل المعنى التى تستعمل فيه (مقربة) (والجحفلة) لذى الحافر كالشفة بالنسبة للإنسان (والرثم) بياض فى شفة الفرس العليا وكل هذا من توابع المعنى الأصلى (لمقربة) التى أريد بها : السفن وعلى هذا فيكون قد شبه السفن بالخيل والجامع أن كلا منهما أداة للبلوغ والتوصيل وحذف المشبه وتناسى التشبيه على سبيل الاستعارة التصريحيه الأصلية وما أفاض به الشاعر حيث أطلق لمسارح خياله أن يجول من ذكر توابع الخيل الحقيقية (كالجحفلة ، والرثم) ، ثم ما هو فى معنى التأكيد اللفظى كقوله : «من الجياد» يعتبر إيغالا فى تناسى التشبيه ، ومبالغة زائدة فى ادعاء أن المشبه فرد من أفراد المشبه به وداخل فى جنسه وورود : ركاب أبطنها مما يعطى معنى أن ركابها جالسون فى بطنها ولا ممتطون صهواتها ونفى أن يكون لها خلق الجياد وشيمهـا فـى قـولـه . . ما لها خلق منها ولا شيم .

مما يعتبر من صفات المشبه وتوابعه ولما كان التعبير لم يغفل التشبيه وإنما أشار إليه وجعلك تشم منه رائحته فقد وضعت هذه الاستعارة فى المنزلة بين المنزلتين المرشحة والمجردة .

ولاحظ أن المتنبى حين استعار للسفن استعار لها من وادى الخيل لما ترمز إليه من أنها أداة الحرب ، ووسيلة كسب معاركها وهو فارس يهوى الفروسية ، لذا رفعها مكانا عليا ، وآثرها على السفينة فنفى أن يكون لها ما للخيل من خلق وطباع .

إن هذه السفن كانت ثمرة لرأيه القاطع السريع الذى لم يستغرق زمنا إلا بمقدار الزمن الذى يستغرقه فهم حرف ذى معنى عند فاهم سامع وذلك فى قوله[1] :

نَتِـاجُ رَأيِـكَ فِـى وَقْـتٍ عَلَـى عَجَـلٍ كلفـظ حَـرْفٍ وَعَـاه سِـامعُ فَهِـمُ

---

(١) الديوان ٤/٢٣ .

فهو يشبه مدة الوقت الذى أحدث رأيه فيه نتاج السفن بالمدة التى يستغرقها فهم السامع الفطن لحرف ذى معنى فى السرعة والتشبيه على هذا النحو يشير إلى حصافة القائد وذكائه ، وحسن رأيه . ونضجه وثقافته ، ثم صور خيبة أمل أعدائه حين تمنوا إبصاره فلما أبصروه حل بهم ما حل ونزل ما نزل لقد صدمهم بجيشه الذى أفقدهم صوابهم وكان سيف الدولة فى مقدمته بمثابة الغرة من جبين الفرس ، وكانت الرماح فى أيدي جنوده كأنها الغمم الكثير المسبل على الوجوه فى قوله[1]:

وَقَدْ تَمَنَّوا غَدَاةَ الدَّرْبِ فِي لَجَبٍ ... أَنْ يُبْصِرُوك فلما أبصروك عَمُوا

صَدَمْتَهم بِخَمِيسٍ أَنْتَ غُرَّتُهُ ... وَسَمْهَرِيَّتُهُ فِي وَجْهِهِ غَمَمُ

فالبيت الأول : تصوير لهيئته التى غضت عيونهم وفى البيت الثانى يقوم التشبيه من خلال تشبيه سيف الدولة وهو فى مقدمة جيشه بالغرة فى جبين الفرس فى التلألأ والبياض . وتشبيه الرماح فى أيدى الجنود بالغمم المسبل على الوجوه ووجه الشبه هو الكثرة فى كل .

ثم تكون نهاية المعركة التى تابعها الشاعر . وخاض مع أبطالها بحار الموت ، وصور ما وقع على أرضها من فتك ، وما سال فيها من دم ، وأطيح من رقاب ، وفصل من رءوس فى قوله[2] :

فَكَانَ أَثْبَتَ مَا فِيهِمْ جُسُومُهُمُ ... يَسْقُطْنَ حَولَكَ والأَرْوَاحَ تَنْهَزِمُ

والأَعْوجِيَّةُ مِلءُ الطَرْقِ خَلْفَهُم ... والمشْرَفِيَّةُ مِلْءُ اليَومِ فَوقَهُمُ

إِذَا تَوَافَقَتِ الضَّرَبَاتُ صَاعِدَةً ... تَوَافَقَتِ قُلَلٌ فِى الجَو تَصْطَدِمُ

والتقى الجيشان وضرب سيف الدولة فى سرعة طوقا من الحصار حول خصومه وراح جيشه يصول ، ويجول ، يقطع الرءوس ، ويجتذ الرقاب .

وكأن المنايا طوع أمره ، ورهن ضرباته . إن الشاعر يتهكم ويسخر فى مرارة وازدراء حين يثبت للأجساد ثباتا ولكنه إلى سقوط وانحدار وتهاو بعد أن انهزمت الأرواح ، وفارقت أصحابها . وأنت ترى الكناية تنادى عليك من خلال قوله : (والأرواح تنهزم) لأن انهزامها مما يشير إلى أنها تركت أجسادها وفارقتها فى وقت وجيز ويسير من غير أن تصمد فى الميدان إظهارا ، للتحدى ، أو رغبة فى المقاومة .

(١،٢) الديوان ٤/٢٤ .

وفى البيت الثانى : والأعوجية مِلء الطرق . . . إلخ .

تبصر كيف تتزاحم الخيل ، وتتكاثر خلف الأعداء والخصوم حتى تملأ الطرق ، وتسد المسالك ، وتبصر السيوف وهى تعلو فى الفضاء وتهبط فتحجب مطالع الضوء ، وتزحم الأفق حتى لكأنها شغلت مساحة الضوء فى النهار ، وملأت حيزه فاقترن بها وارتبط وجوده بوجودها فأينما كان كانت ولا إخالنى إلا فاهم أن التصوير كناية عن الكثرة . كثرة الخيل التى ملأت الطرق ، وكثرة السيوف التى ملأت النهار فلم تبق فيه مكانا لغيرها . وشىء آخر فإن ملء اليوم معناها ما يملؤه واليوم لا يملأ بالمعنى المفهوم وإنما هو مشبه بما يملأ كالوعاء مثلا أو ما شاكله ويكون المشبه به قد حذف ورمز إليه بشىء من لوازمه وهو : ملء ثم ألا يمكن أن نفهم فى قوله : والأعوجية ملء الأرض . .

أن الطرقات ليست أيضا وعاء بالمعنى اللغوى لكلمة وعاء وأن الخيل لاتملؤها ؟

ومن الممكن أن تكون هنا استعارة تصريحية ، كأن يشبه سدّ الطرق بملئها والجامع بين المستعار له والمستعار منه عدم وجود فراغ . مع ملاحظة أن المبالغة فى القول أوضح من أن يشار إليها . فإذا تركت البيت الثانى وذهبت إلى البيت الثالث فى قوله :

إذَا تَوَافَقَتِ الضَّرَبَاتُ صَاعِدَةً تَوَافَقَتِ قُلَلٌ فِى الجَوِ تَصْطَدِمُ

رأيت التسديد المحكم الذى تتطاير له الهامات ، والضرب المتوافق مع اجتثاث الرءوس ، وجذ الرقاب . إذ إن سيوف المقاتلين تشق الفضاء لتعلو وتهوى على الأعناق فلا تخطئ ضربة هدفها ، ولا تضل رمية صاحبها ، حتى ليتوافق اصطدام الضرب بالرءوس ، واصطدام الرءوس بعضها ببعض ساعة هويها على الأرض ، وتطايرها فى جو المعركة والتصوير كناية عن التسديد المحكم ، والضرب الذى يصيب غرضه ولا يخطئ .

ثم يصور السخرية المرة التى حظى بها قائد قوات الروم من يمينه التى هزئت منه وسخرت بسبب ما أوقع نفسه فيه من كذب إذ حلف على الثبات والنصر .

فتخاذل وانكسر وفر وهرب فى قوله[1] :

وَأَسْـــلَم ابـــنُ شُمُشْـــقِيقٍ أَلِيَّـــهُ ... إلاَّ انْثَنَـى فَهْـو يـأى وَهْـىَ تَبْتَسِـمُ
لاَ يَأْمـل الـنَّفَسَ الأَقْصَـى لمهْجَتِـهَ ... فَيسَـرقُ الـنَّفَسَ الأَدْنَـىَ وَيغْتَـنِمُ
تَـرُدُّ عَنْـه قَنـا الفُرْسَـانِ سَـابِغَةٌ ... صَـوّبُ الأَسِـنَّة فـى أثنَائِهـا ديَـمُ
تَخُـطُّ فِيهَـا العَـوَالِى لـيس تَنْفُـذُهَا ... كَـأَنّ كـلَّ سِـنانٍ فَوْقَهـا قَلَـمُ

فهو يثبت الفرار لابن شُمشُقِيقٍ ، ويسجل عليه الكذب لحنثه فيما أقسم عليه من الصمود ويبين أن آلته (يمينه) تبتسم ساخرة منه وفى قوله (وهى تبتسم) ما يصلح أن يكون كناية عن الاستهزاء به والسخرية منه .

وفى البيت الثانى : يبين أنه لم يعد يأمل فى أن يتنفس نفسا عميقا لصعوبة الموقف من أجل ذلك فهو يحاول أن يستعيض عن النفس الأقصى بالنفس القريب خلسة وسرقة ، وفى ذلك ما يصح أن يكون كناية عن اليأس القاتل ، والحسرة المردية والرضا بالقليل إذ لا رجاء فيما هو فوقه .

وفى البيت الثالث : يبين أن الدروع السابغة تمنع قنا الفرسان المشتجرة فلا تنال منه وهو يهرب مع أنها غطتها بالدم وأمطرتها به ، ويمكن فهم التشبيه على أنه يقوم بين تشبيه وقع الأسنة فى هذه الدروع بوقع الديمة فى التتابع والتوالى .

وفى البيت الرابع : يؤكد عدم نفاذ الأسنة فى الدروع ويشبه أثرها عليها بأثر كتابة الأقلام فى القرطاس .

ثم يدعو على الشجر الكثيف الملتف الذى واراه حين هرب إليه ، والذى لولاه لمزقته السيوف ، وقدمته وجبة شهية لجوارح الطير ورخمها فى قوله[2] :

فَـلاَ سَـقَى الغَيْـثُ مَـا وَارَاه مِـنْ شَـجَرٍ ... لـو زَلَّ عَنْـه لَـوَارى شَخْصَـه الـرَّخَمُ

ثم يكون مسك الختام للقائد فى هذا الاستسلام المزرى ، والانقياد الذليل لقد سعت إليه دماء الروم منكسة كسيرة ، ودانت له بالولاء ، فى طواعية وتسليم بعد أن أطاح برءوس الكثيرين وأصبح الرعب من هول لقائه قضاء غالبا يحكم خصومه

---

(١) الديوان ٤/٥٤ .
(٢) الديوان ٤/٢٥ .

حتى ليكاد لو دعاهم للحرب لسالت دماؤهم قبل الضرب إجابة له وفرقا من بطشه فى قوله[1] :

أَلْقَتْ إِلَيْكَ دِمَاءُ الرُّومِ طَاعَتَهَا ... فَلَوْ دَعَوْتَ بِلاَ ضَرْبٍ أَجَابَ دَمُ

يُسَابِقُ القَتْلُ فِيهِم كُلَّ حَادِثَةٍ ... فَمَا يِصُيبُهُم مَوت ولا هَرَمُ

ومن الممكن أن يفهم فى البيت الأول استعارة تجرى على هذا النحو بأن تشبه حال الدماء التى تتدفق على أرض المعركة فى غزارة لا تنقطع وهو يتصرف فيها كيف يشاء بحال الشىء يلقى بنفسه طائعا مختارا ليكون فى قبضة يده وتحت تصرف مشيئته بجامع أن كلا لا يستعصى عليه ولا يمتنع منه لأنه واقع تحت قهره وبطشه .

وفى البيت الثانى : يبين أن سيوف الرجل تتخطف أعداءه بالقتل فليس فيهم من يموت على فراشه ، أو يبقى حتى يهرم . ويلاحظ أن القتل قد تحول فى خيال الشاعر إلى كائن حى يجرى ، ويتحرك ، ويسابق ، ويسبق وذلك لا يكون إلا على أساس من التخييل كأن يشبه القتل بكائن حى ، تجرى عليه قوانين الأحياء ويحذف المشبه به ويرمز إليه بشىء من لوازمه وهو « يسابق » فى البيت السابق .

وبمثل ما صور الحركة النشطة المندفعة فى ميميته السابقة أتابع معه نفس الحركة المتوثبة غير المهملة ولا المترفقة ، إذ تبدو واضحة من خلال تصويره فى لا ميته التى تابع فيها الجيش خطوة وسجل أحداث المعركة التى خاضها ضد الروم ووقائعها ، واستطاع أن ينقل المتلقى إليها يسمع جلبتها ، ويرى مشاهدها ، ويبصر الأسنة وهى ترتوى بالدماء ، وهمة القائد وهو يعيش المعركة ويديرها فى تفوق واقتدار والتى يبدؤها بقوله[2] :

لَيَالِيَ بَعْدَ الظَّاعِنِينَ شُكُولُ ... طِوَالٌ وَلَيْلُ العَاشِقِينَ طَوِيلُ

يُبَيِّنُ لِي الْبَدْرَ الَّذِى لاَ أُرِيدُه ... ويخفِينَ بَدْرا مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ

وَمَا عِشْتُ مِنْ بَعْدِ الأَحِبَّةِ سَلْوَةً ... وَلكِنَنِي للنَّائِبَاتِ حَمُولُ

---

(١) الديوان ٤/٢٦ .

(٢) المرجع السابق ٣/٩٥ .

فإذا تجاوزت هذه الأبيات التى يشكو فيها الشاعر من لياليه الطوال المتشابهة وكيف أنهن يخفين بدره الغالى العزيز الذى لا سبيل إلى الوصول إليه ويظهرن له بدرا لا يرغبه ولا يريده .

وأنه ما سلا عن الأحبة ولكنه صلب العود ، قوى الاحتمال ، ونوب الدهر تعرف قدرته لذا تخصه بها ، وكأنها تؤثر ألا يشاركه فيها غيره .

ووصلت إليه حين يتوسل بالبيان فى تصوير جو المعركة ووصف خيله التى براها الركض ، وحال السبايا اللائي وقعن فى الأسر ، ومطاردة خيل سيف الدولة لعدوه من الروم ، والخيل إنما تتحرك وعليها فرسانها ثم عبورها للنهر ، وتصوير حركة المياه فى قوله[1] :

١) هُمَامٌ إذاَ مَا هَمَّ أمضَى هُمُومَه ... بأَزْعَنَ وَطْء المَوْتِ فِيه ثَقِيلُ

٢) وخَيلٍ بَرَاها الرَّكْضُ فِى كُلِّ بَلدَةٍ ... إذا عرَّسَتْ فِيهَا فَلَيْس تَقِيلُ

٣) فَلَمَّا تَجَلَّى مِنْ دَلُوكَ وَصنجةٍ ... عَلَتْ كُلَّ طَوْدٍ رَايَةٌ ودليلُ

٤) عَلَى طرقٍ فيهاَ عَلَى الطُّرق رفعةٌ ... وفِى ذِكْرِهَا عِنْدَ الأنِيسِ خُمُولُ

٥) فَمَا شَعَرُوا حتَّى رَأوْهَا مُغِيرةً ... قِباحًا وأمَا خَلْقُهَا فَجمِيلُ

٦) سَحَائِبُ يُمْطِرْنَ الحَدِيدَ عَلَيْهِمُ ... فَكُلُّ مكانٍ بالسُّيوفِ غَسِيلُ

٧) وأَمْسَى السَّبَايَا يَنْتَحِبْنَ بِعَرْقَةٍ ... كَأَنَّ جُيُوبَ الثَّاكِلات ذُيُولُ

٨) وَعَادَتْ فَظَنُّوهَا بِمَوْزَارَ قُفلاً ... وَلَيسْ لَهَا إلاّ الدُّخُولَ قُفُولُ

٩) فَخَاضَتْ نَجِيعَ الجَمْعِ خَوْضًا كَأَنَّهُ ... بِكُلِّ نجِيعٍ لَمْ تَخُضْه كَفِيلُ

١٠) تُسَايِرهَا النِّيرانُ فِي كُلِّ مَسْلَكٍ ... بِهِ القَوْمُ صَرْعَى والدِّيَارُ طُلُولُ

١١) وَكَرَّتْ فَمَرَّت فِي دِمَاءَ مَلَطْيَةٍ ... مَلَطْيَةُ أُمُّ للبَنِينَ ثَكُولُ

١٢) وَأَضْعَفْنَ مَا كُلِّفْنَهُ مِنْ قُبَاقِبٍ ... فَأَضْحَى كَأَنَّ المَاء فِيه عَلِيلُ

١٣) وَرُعْنَ بِنَا قَلْب الفرَاتِ كَأَنَّمَا ... تَخِرُّ علَيْهِ بِالرِّجَالِ سُيُول

١٤) يُطَارِدُ فِيهِ مَوْجَهُ كُلُّ سَابِحٍ ... سَواءٌ عليهِ غَمرةٌ ومسيلُ

١٥) تَرَاهُ كَأَنَّ الْمَاءَ مَرَّ بِجِسْمِه ... وَأَقْبَلَ رَأْسٌ وَحْدَهُ وَتَلِيلُ

---

(١) الديوان ٣/١٠٠ .

١٦) وَفِـى بَطْـنِ هِنْـزِيطٍ وسِـمْنِينَ للظُّبَـى وصُـمَّ القَنَـا مِمَّـنْ أَبَـدْنَ بَـدِيلُ
١٧) طَلَعْـنَ عَلَـيْهِمْ طَلْعَـةً يعْرِفُونَهَـا لَهَـا غُـرَرٌ مـا تَنْقَضِـى وحُجُـولُ
١٨) تَمَـلُّ الحُصُـونُ الشُّـمُّ طُـولَ نَزَالِنَـا فَتُلْقِـى إِلَيْنَـا أَهْلَهَـا وَتَـزُول
١٩) وبِتْنَ بِحِصْنِ الرَّانِ رَزْحى مِنَ الوَجى وَكُـلُّ عَزِيـزٍ للأَمِيـرِ ذَلِيـلُ
٢٠) وَفِـى كُـلّ نَفْـس مَـا خَـلاه مَلاَلَـةٌ وَفِـي كُـلّ سَـيْفٍ مَـا خَـلاهُ فُلُـولُ
٢١) ودُونَ سُمَيسَـاطَ المَطَـامِيرُ وَالْمَـلاَ وَأَوْدِيـةٌ مَجْهُولـةٌ وهُجُـولُ
٢٢) لَبِسْنَ الدُّجَى فِيهَا إِلىَ أَرْضِ مَرْعَشٍ وللـرّومِ خَطـبٌ فـى الـبِلاَد جَلِيـلُ
٢٣) فَلَمـاَ رَأَوْه وَحْـدَه قَبْـلَ جَيشْـهِ دَرَوْا أَنَّ كُـلَّ العَـالَمِينَ فُضُـولُ
٢٤) وأَنّ رِمَـاح الخَـطِّ عنـه قصـيرةٌ وأنّ حَدِيـدَ الهِنْـدِ عَنْـه كَلِيـلُ
٢٥) فَـأَوْرَدَهُم صَـدْر الحِصَـانِ وسَـيفَهُ فَتًـى بأسُـهُ مِثْـلُ العَطَـاءِ جَزِيـلُ

ففى البيت الأول :

هُمَـامُ إذاَ مَـا هَـمَّ أَمضْـى هُمُومَـه بـأَرْعَنَ وَطْء المَـوْتِ فيـه ثَقِيـلُ

تطالع صورة هذا الهمام الذى يقود جيشه الأرعن فى حركته المضطربة المتشعبة وهو يمضى فى جسارة لإنفاذ ما هم له ، ويتقدم الموت بتقدمه ، ويتحرك بتحركه ليصرع خصومه صرعا ، ويتخطف أرواحهم تخطفا ، ويطؤهم بقدميه الغليظتين وطئا ، وأنت تستطيع أن تبصر الموت هنا كائنا حيا ذا قدمين يطأ بهما من يعترض طريقه فيصحنه فى قوة واقتدار وهكذا يشبه الموت بذى قدمين ويحذف المشبه به ويرمز إليه بشىء من لوازمه (وطء) استعارة مكنية .

وفى البيت الثانى :

وخَيـلٍ يَرَاهـا الـرَّكْضُ فِـى كُـلّ بَلـدَةٍ إذا عرَّسَـتْ فِيهَـا فَلَـيْس تَقِيـلُ

ترى الخيل وكيف صارت سهاما صلبة قد بريت . شأنها شأن السهام من كثرة الركض ، والترحال . إنها فى حركتها وسيرها لا تتوقف فما تكاد تصل مع الجيش إلى بلد غازية وفاتحة فى آخر الليل حتى تنطلق لتغزو وتفتح بلدا آخر لاتنى ولا تستريح . وأنت تستطيع أن تفهم أن الخيل قد شبهت بالسهام الصلبة ثم حذفت السهام ورمز إليها بشىء من لوازمها وهو البرى ويمكن أن تفهم فى قوله : براها

استعارة تصريحيه حيث شبه الهزال بالبرى بجامع النحافة واستعير المشبه ، للمشبه بعد حذفه .

وفى البيت الثالث :

فَلَمَّـا تَجَلَّـى مِـنْ دَلُـوكَ وَصـنّجةٍ عَلَـتْ كُـلَّ طَـوْدٍ رايَـةٌ ودليـلُ

تبصر الرايات الخافقة وهى ترفرف على قمم الجبال العالية كما ترى الخيول الصاهلة ، والأسود الكاسرة وهى تلتف حول أعلامها المنتشرة فى فرحة غامرة بعد أن أشرقت دلوك . وصنجة بوصول الجيش إليهما ، وانتشاره والبيت كناية عن الانتشار والكثرة .

وفى قوله فى البيت الرابع والخامس :

عَلَـى طـرقٍ فيهـا عَلَـى الطُّـرق رفعـةٌ وفـى ذِكْرِهـا عِنْـدَ الأنِـيسِ خُمُـولُ

فَمَـا شَـعَرُوا حتَّـى رَأَوْهَـا مُغِيـرةً قِباحـا وأمـا خَلْقُهـا فَجَمِيـلُ

يتحدث عن الجيش الذى يسلك الطرق الصعبة المرتفعة فى رءوس الجبال ، ويجتاز السبل المجهولة التى لا يعرف أحد عنها شيئا ولا يسمع لها ذكرا والبيت بصورته يصلح أن يكون كناية عن قوة تصميم هذا الجيش واستواء السهل مع الصعب أمامه هذا فى البيت الرابع وفى الخامس ترى السرعة فى حركة الجيش التى طوى بها الأرض وفاجأ خصومه فلم يشعروا إلا والخيل تغير عليهم وتصيبهم بالذعر والذهول الذى رأوا معه قبح الخيل لما فعلته بهم مع أنها جميلة الخلق متألقة الغرر والبيت يصلح أن يكون كناية عن المفاجأة فى سرعة الخيل وما صحبها من أهوال .

وفى البيت السادس :

سَـحَائِبُ يمْطِـرن الحَدِيـدَ عَلَـيْهِمُ فَكُـلُّ مكـانٍ بالسُّـيوفِ غَسـيلُ

ترى الخيل فى كثرتها وهى تزحف كالسحاب تبرق عليها الأسلحة وتتألق وتلمع . .

وفى قوله : (يمطرن الحديد) تصوير لهيئة المعركة وبيان ضراوتها ولما تخيَّل الخيل سحائب أثبت لها مطرا وجعله الحديد وفى التعبير بقوله : (يمطرن) ما يفيد

الغزارة والانهمار والكثرة ولما كانت الخيل ترتبط بفرسانها والخيل كثيرة فإن الفرسان كثيرون مما يعنى قوة الصمود والثبات والاستمرار . وفى قوله : (فكل مكان بالسيوف غسيل) ما يرسم صورة لبحار الدماء المتدفقة فى غزارة والتى غسلت مكان المعركة غسلا والبيت غنى بالتصوير ، ولك أن تتأمل كيف جعل السيوف مطرا نازلا من السماء فصور السيوف بالمطر وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه « يمطرن» وفى تصوير السيوف بالمطر ما يفيد مع كثرتها أنه لا سبيل إلى دفعها وردها . شأنها شأن المطر النازل من السماء والذى لا حيلة للإنسان فيه ولا قبل له به .

وفى البيت السابع :

وأمْسَى السَّبَايَا يَنْتَحِبنَ بِعَرْقَهِ كَأَنَّ جُيُوبَ الثَّاكِلاَت ذُيُولُ

ترى الثاكلات اللائى أضحين سبايا بعد أن فقدن آباءهن ، وأزواجهن وأبناءهن ، وإخوانهن ، وهن ينتحبن ، ويصرخن ، ويشققن ثيابهن فى حرقة كاوية ، وفجيعة مرة لقد شققن جيوبهن فتدلت على الأرض وصارت كالذيول ، والبيت فضلا عن تصوير المرارة والثكل والضياع والألم يقوم التشبيه فيه من خلال جيوب الثياب التى قطعتها السبايا فوصلت إلى الأرض وتدلت من الخلف بالذيول التى تتدلى من الخلف ووجه الشبه هو التدلى .

والتشبيه بصورته يحكى الحالة النفسية للجوارى من آثار الهزيمة المرة والفجيعة فى الأحباب والأهل مع الوقوع فى الأسر وأصبح الرجاء فى تخليصهن مما هن فيه غير وارد ، فأصبن بنوع من الهستيرية العصبية التى كان منها النواح ، والعويل ، ولطم الخدود ، وشق الثياب . إن الفئتين قد التقتا وجيش سيف الدولة ليطوح بالرقاب ويفصل الرءوس عن الأجساد وكأن المنايا طوع أمره ورهن إشارته فهو لا يريد رأسا إلا قطعه وإن الدماء لتتدفق فى غزارة من أجواف القتلى ولا تنقطع وأن ما توهموه من رؤيتهم للخيل فى عودتها وظنهم أنها عائدة إلى مواقعها بعيدا عنهم قد خاب وهذا ما يفصح عنه قوله فى البيت الثامن والتاسع :

وَعَادَتْ فَظَنُّوهَا بِمَوْزَارَ قُفَّلا وَلَيسَ لَهَا إلاَّ الدُّخُولَ قُفُولُ

فَخَاضَتْ نَجِيعَ الجَمْعِ خَوْضًا كَأَنَّهُ بِكُلِّ نجِيعٍ لَمْ تَخُضَّه كَفِيلُ

إنك لتبصر الحركة المتنقلة للخيل من موقع إلى موقع ومن مكان إلى مكان لقد كانت عودتها للدخول عليهم ، واقتحام مواقعهم ولم تكن عودة إلى المكان الذى انطلقت منه لتهدأ وتستريح فقد قفلت عائدة للقضاء عليهم .

فخاضت فى دمائهم بعد أن مزقتهم ، وقطعتهم خوضا كفل لمن رآه بأن تلك الخيول قد عقد النصر بلوائها . وسار بسيرها ولم يعد يتعذر عليها أى خوض أو يمتنع . إن غزارة الدماء جعلتها تخوض وكأن الدماء قد تفجرت بحورا وأنهارا فأقدامها تغوص فيها وتغيب إن التعبير بقوله : فخاضت نجيع الجمع خوضا .

يشعرك بغزارة هذه الدماء المسفوكة والمتدفقة من أجوافهم حتى فاضت بها أرض المعركة ، وتحولت إلى بحور من الدم «وفى غزاره الدماء» ما يدل على كثرة القتلى . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه خوض الخيول فى دماء القتلى الغزيرة وغوصان أقدامها فيها بضمان النصر فى أى معركة وخوض كل دم لم تخضه بعد ذلك ووجه الشبه هو تحقيق النصر ، وهزيمة الخصوم والأعداء وخوض الدم فى كل حين .

وفى البيت العاشر :

تُسَايِرهَا النِّيرانُ فِي كُلِّ مَسْلَكٍ بِهِ القَوْمُ صَرْعَى والدِّيَارُ طُلُولُ

ترى التلازم الذى لا ينفك بين حركة الخيول وتنقلها من مكان إلى مكان وبين النيران التى تشتعل فى إثرها وتضطرم فى كل المواقع التى تحل فيها إن النيران تسايرها وتسير بسيرها فى كل واد ومكان والجنود يشعلونها فى الأماكن التى ينزلون بها والحصون التى يحتلونها . ولم يمنع مصارع الأعداء على أيدى الجيش المنتصر من إشعال النار التى تأججت ، وتوهجت . وأكلت ما بقى من آثار القوم وديارهم فصارت كالطلال الشاخصة تحكى قصة هؤلاء القوم وما آلوا إليه بعد أن صاروا أثرا بعد عين وما حديثك عن عدو رجاله صرعى وديارة طلول والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه ديار هؤلاء القوم بالطلول الشاخصة فى الشكل والصورة .

وأنت تستطيع أن تدرك من خلال صورة التشبيه قوة الجيش المنتصر الذى يتحرك بتحرك خيله ، وكيف أحال الأحياء المقاتلين إلى صرعى مفقودين والديار

الناغية العامرة الآنسة إلى طلول شاخصة وإلى آثار بالية ـ ثم إن الخيل ما زالت تتحرك حركتها النشطة السريعة وإنها فى حركتها السريعة كما خاضت نجيع الجمع قبل كرت فمرت فى دماء أهل ملطية فى قوله :

وَكَرَّتْ فَمَرَّت فِي دِمَاءَ مَلَطْيَةٍ مَلَطْيَةُ أمُّ للبَنِينَ ثُكُولُ

إن مَلَطْيَةَ هنا قد غطيت بالدماء فدماء ملطية بهذه الإضافة تفيد غزارة الدماء بما يستتبعها من كثرة الضحايا والقتلى لقد شيعت أبناءها الذين فقدتهم فى المعركة وصارت ثاكلة لا ولد لها وفى قوله :

مَلَطْيَةُ أمُّ للبَنِينَ ثُكُولُ

كناية عن فقد الأهل والأبناء .

ثم يتابع الشاعر الخيل وهى تعبر نهر قباقب فتكاد تمنع تدفق المياه وجريانها فيه من كثرتها وزحمة النهر بها وقد أقامت من أجسادها شبه سد فى قوله :

وَأَضْعَفْنَ مَا كُلِّفَةَ من قُباقِبٍ فَأَضْحى كأن المَاء فِيه عَلِيلُ

إن حركة المياه فى النهر ضعيفة لا تجرى على عادتها فى اندفاعها لأن عبور الجيش الكثير أصاب تيار النهر بضعف فلم يعد يجرى . حتى ليخيل إلى من يراه أنه مريض ، والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الماء بالضعيف فى عدم القدرة على الاندفاع .

وفى البيت الثالث عشر والرابع عشر :

وَرَعْنَ بِنَا قَلْب الفُرَاتِ كَأَنَّمَا تَخِرُ عَلَيه بِالرِّجَال سُيُول

يُطَارِدَ فِيه موجَهُ كُلُّ سَابِحٍ سَواءٌ عليهِ غَمْرةٌ ومسِيلُ

تستمر الحركة النشطة التى تمثل الخيلُ أحدَ عناصرها القوية ، لأن المطاردة فى الحرب تقوم على الحركة ، إذ هى أساسها والخيل رمزها إن حركة العبور داخل النهر تثير فيه الذعر ، وتبعث الخوف . لقد تحول النهر فى خيال الشاعر إلى ذى قلب مذعور يرتعد ويخاف (ورعن بنا قلب الفرات) من هول وعنف ما رأى ، إن اندفاع الخيل ومعها الرجال إلى النهر شكل رافدا جديدا يصب فى النهر لم يألفه ، ولم يعتده فاضطربت حركة الموج بداخله إن موجات العبور المندفعة المتصلة من

عل تشبه السيول التى لا تخر بالمياه وإنما تخر بالرجال وتقذف بهم من قواعدهم إلى قلب الفرات المضطرب المذعور . وتأمل الكثرة الكثيرة والعدد الذى لا يكاد يعد ولا يحصر فى قوله : فكأنما تخر عليه بالرجال سيول .

إن جيش سيف الدولة لا يحصيه العد ولا يحيط به الحصر ، إنه كالسيل المنهمر والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الرجال الذين يتلاحقون فى شبه موجات بشرية لعبور النهر بالسيول المندفعة المتصلة فى الكثرة والتدفق .

وفى البيت الرابع عشر :

يُطَارِدَ فِيهِ موجُهُ كُلُّ سَابِحٍ سَواءٌ عليهِ غَمْرَةٌ ومسِيلُ

ترى الخيول وهى تطارد الموج أمامها ، وتدفعه ، وتمضى فى طريقها لا يثنيها شىء إنها لقوتها لاتكترث لغمرة الماء ، وضخامة موجه وإنما يستوى أمامها الغمرة والمسيل ويمكن أن يفهم فى قوله : سواء عليه غمرة ومسيل تشبيه يفيد التسوية يقوم من خلال تشبيه سبح الخيول فى الغمرة بسيرها فى المسيل ووجه الشبه هو التسوية . وفى قوله فى البيت الخامس عشر :

تَرَاهُ كَأَنَّ المَاءَ مَرَّ بِجِسْمِهِ وَأَقْبَلَ رَأْسُ وَحْدَهُ وتَلِيلُ

يصور عمق مياه النهر وغزارتها تلك المياه المتدفقة الكثيرة التى تغطى أجساد الخيول فى عبورها ولا تدع من شيء سوى الرأس والعنق (القليل) والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الفرس فى سبحه وقد اختفى جسده داخل النهر العظيم ، ولم يبق منه سوى الرأس والعنق بمن أذهب الماء بجسمه كله وأبقى الرأس والعنق وحدهما يسبحان ووجه الشبه غياب الكثير وظهور القليل .

وفى البيتين السادس عشر والسابع عشر يقول :

وَفِى بَطْنِ هِنْزِيطٍ وسِمْنِينَ للظُّبَى وصُمَّ القَنَا مِمَّنْ أَبَدْنَ بَدِيلُ

طَلَعْنَ عَلَيهِمْ طَلْعَةً يَعْرِفُونَهَا لَهَا غُرَرٌ ما تَنْقَضِى وحُجُولُ

فترى الخيل وقد اجتازت النهر فى عبورها ووصلت إلى هذين الموضعين (هنزيط وسمنين) وكانت قد دمرت أهلهما من قبل وقضت عليهما قضاء تاما ووجدت قوما آخرين فأدركتهم وأفنتهم وفى ذلك كناية عن تلاحق الغارات وتتابعها فى هذا المكان .

لقد طلعت على أهل المكان طلعة يعرفون أثرها ، وما يترتب عليها من المحق والتدمير . إنها طلعة مشهورة شهرة الغرر والحجول . ويمكن أن يفهم هنا تشبيه يقوم من خلال تشبيه طلعة الخيل يمتطيها فرسانها على أهل هنزيط وسمنين بطلعة يعرفون شهرتها ، ويدركون عظمتها ووجه الشبه بين الطرفين هو الشهرة والإدراك .

وانظر إلى تلك الحصون الشم كيف أصابها اليأس ، وأرهقها الملل فألقت أهلها بين يدى الجيش المنتصر فى استسلام كبير وذلك فى قوله :

تَمَـلُّ الحُصُـونَ الشُّـمُّ طُـول نِزَالِنَـا فَتُلْقِـي إلَيْنَـا أَهْلَهَـا وَتَـزُول

إن الحصون قد تحولت إلى قوى مدركة عاقلة تصاب بالملل والإحباط ، وقد اشتدت عليها الوطأة ، وأحكم حولها الحصار وعجزت عن المقاومة فرمت بأبنائها إلى الجيش الغازى ليفتك بها مستسلمة لضرباته القاتلة القاصمة فى خزى وانكسار ، وانظر إلى التكنية عن اليأس والإصابة بالملل تمل الحصون .

والعجز عن المقاومة والاستسلام المهين : فتلقى إلينا أهلها وتزول .

ثم انظر إلى الحصون كيف صارت كمن يدرك ويعقل وأثبت لها من لوازمه(تمل ، وتلقى)إن الخيل قد نالها التعب ، وأدركها الإرهاق وكان لابد لها من أن تتوقف حتى تستريح ثم تنطلق وهذا ما قد حدث .

وبِتْنَ بِحِصْنِ الرَّانِ رَزْحى مِنَ الوَجى وَكُـلُّ عَزِيـزٍ للأَمِيـرِ ذَلِيـلُ

إنها توقفت بهذا الحصن الذى استسلم له والذى صار عزيزه لسيف الدولة ذليلا ثم تحدث عن صبر القائد ، وقوة جلده ، وقدرته على الاحتمال فى قوله :

وَفِـي كُـلِّ نَفْـسٍ مَـا خَـلاهُ مَلاَلَـةٌ وَفـي كُـلِّ سَـيْفٍ مَـا خـلاَهُ فُلُـولُ

إن نفسه لتتعالى فوق كل الملل فى وقت أصاب كل النفوس ، وإن سيفه لا ينبو أبدا عن ضربته فى وقت قد فَلَّ الضرب كل السيوف .

ثم تتقدم الخيل قاطعة الوديان ، والمهامه ، والمجاهل إلى سُمَيْسَاط فى قوله :

فَلَمـاَ رَأَوْه وَحْـدَه قَبْـلَ جَيشْـهِ دَرَوْا أن كُـلَّ العَـالَمِينَ فُضُـولُ

وأَنَّ رِمَـاح الخَـطِّ عنـه قصـيرةٌ وأنَّ حَدِيـدَ الهِنْـدِ عَنْـه كَلِيـلُ

فَـأوْرَدَهُم صَـدْر الحِصَـانِ وسَـيفَهُ فَتَـى بأْسُـهُ مِثـلُ العَطَـاءِ جَزِيـلُ

إنه جيش وحده ، وإن غيره كالنفايات ، وإن الرماح لا تطوله فهى كالقصيرة وإن السيوف كالمتعبة الكليلة لا تصل إليه . ثم هو شجاع لا يتردد وقد واجه

خصومه وحاصرهم وأبادهم «هذا ما كنى عنه قوله : (فأوردهم صدر الحصان وسيفه)لقد أعطاهم صدره ولم يعطهم ظهره كما أوردهم سيفه للتكنية عن إبادتهم به . وهو من قبل ذلك معطاء كثير العطاء جواد كثير الجود وأن شجاعته وبأسه مثل جوده فى الكثرة والغزارة وفى سبيل تأكيد هذا الجود ، الجود فى الحرب حيث البأس الشديد ، والجود بالمال حيث العطاء الوافر الجزيل يبين أنه جواد مهما اعترضت طريقه العوائق ، وأنه لا يبخل بشىء من ماله كله ولكنه بخيل ضنين بفرسانه وأصحابه تضمن قوته وشجاعته حياتهم فلا ينالهم أذى ، ولا يلحقهم مكروه ولقد استطاع الطباق بين (جواد وبخيل) أن يرسم ملامح هذا الفارس الذى يجمع بين الجود والبخل من خلال هذه الثنائيات الضدية ويكون الجود فى بابه فيفيد أنه : جواد كريم ويكون البخل فى بابه فيفيد : أنه شجاع قوى وذلك فى قوله :

جَـوَادٌ علـى العِـلاَّتِ بالْمَـالِ كلِّـهِ ولكنَّـــه بالـــدَّارِعين بخيـــلُ

ثم تكون البراعة فى التقسيم تأكيدا لقوته وشجاعته وأن كل شىء ينتهى على حسب ما أراده ورسم له فى قوله :

فَـــوَدَّعَ قَـــتْلاَهم وشَـــيَّعَ فَلَّهُـــمْ بِضَـــرْبٍ حُـزُون البِـيضِ فيـه سُـهُولُ

وتنتهى المطاردة عند هذا الحد والنتيجة كما ترى ، إذ إن أعداءه قد صاروا إما : إلى قتيل . وإما إلى هارب . أما القتلى فقد ودعهم ، وتركهم بعد أن أنهى حياتهم وأما الهارب الفار فقد تعقبه ومضى وراءه مشيعا بضرب يكسر ما على رأسه من خوذات ومغافر ويجعل ما علا منها وارتفع كالذى انخفض فى التساوى وتعطى المطابقة بين (التوديع والتشييع) وبين (الحزون والسهول) ما يفيد عدم صعوبة أى شىء عليه وتعذره بل هو قادر على أن يفعل الفعل وما يقابله . إذا كان الحديث عن شعر المعارك والقتال قد خص الفرس بمزيد من البيان والتركيز كما فى هذا النموذج فإن ذلك لما تمتاز به من سرعة فى الحركة التى تتبعها المناورة والقدرة على الكر والفر وهذا هو المطلوب فى ساحات المواقع مع ملاحظة أن الخيل فى كل حركتها النشطة لا تتحرك وحدها منفردة عن أبطالها وإنما تتحرك بحركتهم ، وتسير بسيرهم . ففيه علاقة تلازمية بين الخيل وفرسانها .

تصوير المديح :

لقد توسل الشاعر بالتصوير البيانى فى تصوير من مدحهم واتخذ من موجودات الطبيعة وغيرها أداة لشعره ومدحه ، فالشمس ، والقمر ، والنجوم ، والأفلاك ، والبحار ، والأنهار ، وغيرها استوحى من مظاهرها فنه فى هذا المجال ، ورأى فيها صورة لممدوحيه فتغنى بها على قيثارته ، وردَّدَ ألحانها على وتره يقول فى مدحه لعلى بن منصور الحاجب[1] :

هـذَا الـذِى أبْصَـرت مِنْـه حَاضِـرًا ... مِثْـل الـذِى أبْصَـرت مِنْـهُ غَائِبَـا
كالْبَـدْرِ مِـنْ حَيْـث ٱلتفَـتَّ رأيتَـهُ ... يُهْـدِى إلـى عَيْنيْـك نُـوراً ثَاقِبَـا
كـالْبَحر يقْـذفُ لِلْقَرِيـب جَـوَاهِراً ... جُـوداً وَيبْعَـثُ لِلْبَعِيـدَ سَـحَائِبَا
كالشّمس فى كَبِدَ السماءِ وَضَوْءها ... يَغْشَـى الـبِلاَد مَشـارِقًا ومَغَارِبَـا

وأنت ترى أن أداة التشبيه قد تكررت وتعددت لأن للشخصية التى يمدحها الشاعر جوانب متعددة وهو يريد أن يستوفى هذه الجوانب فكرر أداة الربط بين الطرفين مع تكرير المشبه به .

ففى البيت الأول : يصف ممدوحه بالكرم ، والعطاء . وأن عطاءه وهو حاضر كعطائه وهو غائب والتشبيه يقوم بين تشبيه كرمه وهو حاضر بتشبيه كرمه وعطائه وهو غائب فى الدوام والاستمرار .

وانظر إليه فى البيت الثانى وقد جعل للسماء كبدا ، ووصف ممدوحه بأنه كالبدر المتألق فيه . وأن من ينظر إليه يرى إشراقته ، ونفعه ، يملآن الزمان ، والمكان . فهو لا يظهر فى مكان ويحتجب فى آخر . ولكن نفعه يعم الأرجاء ، ويملأ الآفاق والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الممدوح بالبدر فى النفع والإشراق والعموم .

وفى البيت الثالث يصف ممدوحه بأنه كالبحر فى التدفق ، والعطاء .

وهو لا يخص به القريب دون البعيد ، ولكنه يصل بعطائه إلى القريب والبعيد فهو يقذف للقريب بالجواهر ويبعث للبعيد بالسحائب فمن حضر إليه أخذ ، ومن

---

(١) الديوان ١/١٣٠ ، ١٣١ .

غاب أرسل إليه . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الممدوح فى وصول بره للحاضر ، والغائب . بالبحر فى وصول نفعه للقريب ، والبعيد .

وفى البيت الرابع يصف الممدوح بالشمس فى الرفعة ، والعلو ومع ذلك فضوؤها يعم المشارق ، والمغارب لا ينتفع به قوم دون آخرين . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الممدوح فى بعد منزلته ، وعلو درجته . ووصول نفعه للقريب ، والبعيد بالشمس فى علو منزلتها ، وارتفاع درجتها ، وبعد مكانها ، ووصول ضيائها ، وإشراقتها للقريب ، والبعيد ووجه الشبه بين الطرفين ما يتصف به كل منهما من القرب ، والبعد . وأنت ترى أن المتنبى قد اتخذ من الطباق طريقا لبيان فضل على ابن منصور الحاجب ممدوحه . الطباق بين (حاضر وغائب) و(وقريب وبعيد) وهكذا يتوسل الشاعر بالصورة البيانية وهو يصور مجلس الملك فيجعله سماء ، ويجعل الأب بدرا ، والابن نجما وذلك فى قوله[1]:

أَمَـا تَـرَىَ مَـا أَراه أيُّهَـا المَلِـك ... كأَنَنَـا فـي سَـماءٍ مَالَهـاَ حُبُـكِ

الفرقَـدُ ابنـك والمصـباحُ صَـاحِبهُ ... وأنت بَدرُ الدّجى والْمَجلس الفَلَك

فهو يشبه مجلسه فى الرفعة بالسماء غير أنها لا طرائق لها .

والفرقد بابنه والمصباح صاحبه ، وهو بالبدر فى الإضاءة والرفعة ، والمجلس بالفلك .

وقد ترى الشاعر يتوسل بالتصوير البيانى لبيان أن ممدوحه كالغيث الذى ينبت على الجلود ثيابا من الديباج ، والوشى والعصب وذلك فى قوله[2] :

فَبُورِكْـتَ مِـنْ غَيْـثٍ كـأن جَلَودَنَـا ... بِـه تُنْبِـتُ الـديباجَ والوَشْـى والعَصْـبَا

فيشبهه بالغيث الذى يمطر عليهم فتنبت جلودهم هذه الثياب ثم يتحدث عن شجاعته وجرأته التى يضطرب منها الدهر ويخاف ويهتز فى قوله بعد البيت السابق :

ومـن واهـبٍ جـزْلاً ومِـنْ زاجـرٍ هَـلاً ... ومِـنْ هَاتِـكٍ دِرْعًـا ومـن بـاتر قُضْـبَا

هَنِيئـاً لأَهْـل الثّغْـرِ رَايَـك فـيهمُ ... وأنّـكَ حِـزْبُ الله صِـرْتَ لَهُـم حِزْبَـا

---

(١) الديوان ٢/٣٧٦ .

(٢) المرجع السابق ١/٦٢ .

وَأَنَّـكَ رُعْـت الـدَّهْر فيهـا وَرَيْبَـهُ فَـإنْ شـكَّ فَلْيُحْـدِثْ بِسَـاحَتِها خَطْبـا

فالدهر مرتجف خائف وصروفه مذعورة مرتعدة والخوف والذعر بسبب الممدوح الذى أمن أهل الأرض فى كنفه ، وفى جواره فلا تستطيع صروف الدهر أن تنال منهم ، أو تصل إليهم وإذا شك الدهر فى هذا فليجرب نفسه مع الأرض وليجادل أن يُجلَّ بساحتها خطبا : أو ينزل بها مكروها . ولن يقدر أو يستطيع .

وانظر إلى تصوير ممدوحه فى طلعته على عدوه بالعارض الذى يمطر البلايا والموت والإرزاء فى قوله[1] :

أعْجَلْـتَ ألْسُـنهُمُ بِضَـرْب رِقَـابِهم عَـــنْ قَـــوِلِهِم لاَ فَـــارِسَ إلاَّ ذَا

غِـرٌّ طَلَعْـتَ عَلَيْـه طَلْعَـة عَـارِضٍ مَطَـــر البَلايَـــا وابِـــلاً وَرَذَاذَا

وأنت ترى الشاعر فى البيت الأول : وهو يصف ممدوحه بالشجاعة الفائقة وبالقوة الماضية القاطعة : حين عجل بضرب رقابهم فأطاح بها فى برهة وقضى عليها فى لحظة لم تستطع معها ألسنتهم من أن تنطق لتشهد له بالفروسية ولتثبت أنه واحد العصر والزمان الذى لا يشاركه فى جرأته وقوته سواه .

وفى البيت الثانى : تراه وهو يشبهه بالعارض الذى يمطر البلايا من قتل وأسر وفتك وإهلاك . وانظر كيف جعل ضرباته كالمطر التى لا تمطر سوى البلايا من الفَتك والسحق والتدمير .

وانظر إليه كيف يتخذ من التشبيه وسيلة ليقيم مشابهة تقليدية بينه وبين الشمس فى الحسن والرفعة ، وبينه وبين الليث فى الشجاعة والجرأة وذلك فى قوله[2]:

أمســـاَوِرٌ أم قَـــرْنُ شَـــمْسٍ هَـــذا أم لَيْـــثُ غَـــابٍ يَقْـــدُم الأُسْـــتَاذا؟

فهو يمدح مساور بن محمد الرومى ويصفه بالحسن ، ونباهة الشأن والشجاعة والجرأة وذلك حين شبهه بقرن الشمس فى الضياء والعلو وبالأسد فى الجرأة والشجاعة وهو بإيراده التشبيه على هذه الصورة قد أضاف إليه ما يفيد التساوى بين طرفيه المشبه والمشبه به من كل وجه بحيث إذا رأى أحدهما لم يدر أيهما رأى؟

---

(١) الديوان ٢/٨٣ .

(٢) المرجع السابق ٢/٨٢ .

وهـذه الإضـافة قـد ارتفعـت بالصـورة التشـبيهية وأخرجتهـا مـن دائـرة القـرب والابتذال إلى دائرة الملاحة والحسن وقد يرى فى ممدوحه صورة البحر غيـر أنـه لا ساحل له ، والغيث إلا أن الهواء يضيق به كما فى قوله[1]:

نَفْـدِيَكَ مِـنْ سَـيلٍ إذا سُـئِلَ النَّـدى هَـــولٍ إذَا اختلَطَـــا دمٌ وَمِـــيحُ
لَـوْ كُنْـتَ بَحَـرا لَـمْ يَكُـن لَـكَ سَـاحلٌ أو كُنـتْ غَيْثـاً ضَـاقَ عَنْـكَ اللَّـوحُ
وَخَشِـيتُ مِنْـكَ علـى الـبِلاَدِ وأهْلِهَـا مَـا كَـان أنـذْر قَـومَ نُـوح نـوحُ

فهو عند العطاء سيل يعم النجاد ، والوهاد . وعند الحروب هول ترتعد منه فرائص أعدائه ، ويهولها بأسه ، وهوله .

وفى البيت الثانى يؤكد وصفه بالعطاء والكرم ، ويتوسل إلى ذلك بالتشبيه وتشبيه الجواد بالبحر فى الكرم والعطاء تشبيه قريب .

قد لاكته الألسنة ، ودار عليها كثيرا ، كذلك تشبيهه بالغيث فى التدفق والانصباب ولكن تقييد التشبيه بأنه لو كان بحرا ما كان له ساحل ، أو كان غيثا ضاق عنه اللوح وهو ما بين السماء والأرض من فراغ يشعر أن الخيال قد أضفى عليه نوعا من التصرف خرج به من مجال الابتذال والقرب إلى دارة الارتقاء والبعد :

هذا وقد يشبه الممدوح بالشىء الواحد فى حالتين مختلفتين حالة الرضا ، وحالة السخط ومن خلال هذه الازدواجية والثنائية يظهر فضل الممدوح وأثره كما فى قوله[2] :

إنمـا بَـدْرُ بـنُ عَمـارٍ سَـحَابُ هَطِـلٌ فِيـه ثَـوَابٌ وعقـابُ
إنمـا بَـدْرٌ رزَايَـا وَعَطايـا وَمَنايَـا وطِعَـانٌ وَضِـرابُ
مَـا يُجِيـل الطَّـرفَ إلاَّ حَمِدَتْـهُ جُهْـدَهَا الأَيـدِى وذَمتـهُ الرقَّـابُ

فهو يشبهه بالسحاب ، والسحاب قد يكون أداة النجاة . كما يكون وسيلة الهلاك . فهو يشبهه بالسحاب فى حالتين حالة الرضا والعطاء لأوليائه وأحبائه وحالة السخط ، والغضب على أعدائه وخصومه . فهو فى الرضا كالسحاب فى النجاة وفى حالة السخط كالسحاب فى الإغراق والصعق والتدمير .

---

(١) الديوان ١/٢٥٣ ، ٢٥٤ .
(٢) المرجع السابق ١/١٣٣ ، ١٣٤ .

ولهذا تراه يشبه الممدوح بالشيء وضده ليظهر أثره ، ويكشف جوهره من خلال تلك الثنائيات المتضادة ويظهر هذا مع ما فى البيت الأول فى قوله من بعده :

إنمـــا بَـــدْرٌ رزَايَـــا وَعَطايـــا وَمَنايَـــا وطِعَـــانٌ وَضِـــرابُ

فبدر نفاع ضرار فيه حياة لقوم وهلاك لآخرين حياة لأنْصَاره وموت لخصومه وقد شبهه بالنسبة لأعدائه بالرزايا ، والمنايا ، والطعان ، والضراب فى الضرر والتدمير ، كما شبهه بالنسبة لأحبائه بالعطايا فى النفع والخير .

وقد جعله هذه الأشياء ذاتها مبالغة فى كثرة وقوعها منه . حتى لقد صار وإياها كالشيء الواحد .

وانظر إلى هذه الأيدى التى تحمده ، وتلهج بالثناء عليه وما يفيده ذلك من جوده وكرمه وعطائه وإلى تلك الرقاب التى تذمه وكيف تتخاذل فلا تصمد أمام ضرباته القاصمة التى تفصلها عن أجسادها ، وتطيح بها فى الفضاء الرهيب مما يدل على قوته ، وجرأته ، وشجاعته وذلك فى قوله :

مَـــا يُجِيـــلُ الطَّـــرفَ إلاَّ حَمِدَتْـــهُ جُهْـــدَهَا الأَيـــدِى وذَمتـــهُ الرِّقَـــابُ

وتأمل حسن التعليل فى قوله بعد البيت السابق وكيف تجاوز العلة الأصلية إلى غيرها فى قوله بعد البيت السابق :

مَـــا بِـــهِ قَتْـــلُ أعَادِيـــه ولَكِـــن يتَّقِـــى إخْـــلاَف مَـــا ترجـــو الـــذِّئَابُ

وما يشعرك فيه من أنه قد عقد مع الذئاب عقدا ، وأقام بينه وبينها موثقا أن يقدم لها وجبات شهية من لحوم أعدائه ، ومـن جثث خـصـومـه ، ومـن ثَمَّ فـإنـه لا يقبل أن ينكث عهده ، أو يخلف موعده لذا تراه يتقى إخلاف ما ترجو الذئاب فيقدم إلى وضع حد لنهاية خصومه وأعدائه ليقدم لحومهم طعاما لها .

وانظر إلى هذا التوهم الذى يأتى معه التشبيه معكوسا مما يعطى له مـذاقـا حسنا ، وطعما مقبولا فى قوله[1] :

يَـــا مَـــنْ ألـــوذُ بِـــه فِيمـــا أؤمِّلـــهُ وَمَـــن أَعُـــوذُ بِـــه ممَّـــا أُحَـــاذِرُهُ

وَمَـــنْ تَوَهَّمْـــتُ أن البَحْـــرَ راحتُـــهُ جـــودًا وأن عَطَايـــاه جَـــوَاهِرُهُ

لاَ يَجْبُـــرُ النَّـــاسُ عَظْمـــاً أَنْـــتَ كَاسِـــرُهُ وَلاَ يَهِيضُـــون عَظْمـــا أنـــتَ جَـــابِرُهُ

---

(١) الديوان ٢/١٢٢ .

فهو يصفه بالشجاعة والكرم إذ إنه أمل القاصدين تتحقق آمالهم على يديه وهو قبلة المذعورين ورجاء الخائفين ينتهى خوفهم عند بابه، ويأمنون فى كنفه ورحابه.

وفى البيت الثانى : يصفه بالكرم، ونفاسة العطاء ففى وصفه بالكرم يشبه البحر بأنه ككفه وراحته مبالغة فى الكرم والعطاء. ويشبه عطاياه بالجواهر فى النفاسة وارتفاع القدر، والقيمة.

وفى البيت الثالث : ترى التصوير يتكثف من خلال تأكيد وصفه بالشجاعة إذ إن ما يفعله لا يقدر أحد على دفعه ورده فإذا كسر عظما لا يستطيع أحد جبره وإذا جبر عظما لا يستطيع أحد كسره. وبذلك يصور عن طريق الكناية عجز الناس على رد فعله. والمتنبى يستثمر أسلوب المطابقة كثيرا ليعلى من قدر موضوعه حين يجعل الشيء وضده يتواردان على الموضع الواحد فى وقت واحد. وتلك سمة الشعراء المصورين.

وانظر إلى وصف ممدوحه بالكرم، والشجاعة وتوسله فى ذلك بالتشبيه فى قوله[1] :

كَأَنَّكَ فِي الإِعْطَاءِ لِلمَالِ مُبْغِضٌ وفِي كُلِّ حَرْبٍ لِلْمَنِيَّةِ عَاشِقُ

فهو يشبهه لكثرة جوده بالمبغض للمال الذى يتصرف فيه وكأنه شيء يكرهه، فلا يمسكه. فى خزائنه، ويحتفظ به فيها.

ثم يشبهه فى ملازمته للحرب، ومداومته عليها بالعاشق للموت لكثرة ما يخوض من معارك غير هياب، ولا وجل. والتشبيه بالمبغض للمال، والعاشق للمنية فيه قمة العطاء والبذل عطاء المال، وعطاء النفس.

وانظر إلى هذا التصوير الذى يزدان به جيد ممدوحه وذلك فى قوله[2] :

فَلَمَّا رآنِي مُقْبِلاً هَزَّ نَفْسَهُ إِلَيَّ حُسَامٍ كُلُّ صَفْحٍ لَهُ حَدّ
فلم أر قبلى من مشى البحر نحوه ولا رجلا قامت تعانقه الأسد
كَأَنَّ القِسِيَّ العَاصِيَاتُ تُطِيعُهُ هَوًى أَوْبِهَا فِي غَيْرِ أَنمِلَةٍ زُهْدُ

---

(١) الديوان ٢/٣٤٨. (٢) المرجع السابق ١/٣٧٨.

والمتنبى يفخر بنفسه . وهو يتحدث عن ممدوحه وتلك سمة بارزة من سمات الشاعر يتفرد بها وقد أفضت فى الحديث عنها فى مواطن كثيرة .

فهو يستعير الحسام للممدوح وهو حين رآه هز نفسه ، وأقبل عليه لما يمثله المتنبى من قيمة ، ولما له من قدر . وهو وحده الذى لم يسبق . بمشى الممدوح نحوه ، ومعانقته إياه . بعد أن استعار له البحر جودا والأسد جرأة وشجاعة استعارة تصريحيه أصلية .

وفى البيت الثالث : يصف الممدوح بالقوة حين يشبه القسى الشديدة التى تستعصى على غيره فلا يستطيع جذبها ولكن الممدوح لقوته ينزعها فلا تستعصى عليه بالمطيعة المستسلمة المنقادة حياله هو وزهدا فى غيره ووجه الشبه هو الاستسلام التام والانقياد المطلق .

وانظر إليه وهو يتوسل بالتشبيه فيشبه الممدوح بالسيف والملك بالقراب فى قوله[1] :

وَلاَ مُلْكَ إلا أَنْتَ والمُلْكُ فَضْلَةٌ كأَنَّكَ نَصْلٌ فِيهِ وَهْوَ قِرَابُ

فهو يمدحه قائلا إن الملك الحقيقى متجسد فى ذاتك أنت فلا يتعداها ويتجاوزها إلى غيرها . أما مظاهر الملك من المجد والسؤدد فأنت الذى حققتها بعلو همتك ، وسداد رأيك . وهى بالقياس إليك نافلة ، وفضلة والتشبيه يقوم من خلال تشبيه ذات الممدوح وشخصه بين مظاهر الملك من المجد والسؤدد بحال السيف وسط القراب وداخله . ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود الشىء الغالى العزيز وسط شىء أقل منه جودة وعزا ذلك أن المزية كلها للسيف لا للقراب .

وقبل هذا البيت ترى الشاعر يفخر بنفسه وهو فى طريقه إلى المدح حين يثبت لنفسه عند الدهر حقا يماطله فيه ولا يرده ولطالما عاتبه فى ذلك ولكنه لم يزل عتبه فيقول :

لَنَا عِنْدَ هَذَا الدَّهْرِ حَقٌّ يَلُطُّهُ وَقَدْ قَلَّ إعْتَابٌ وَطَالَ عِتَابُ

---

(١) الديوان ١/١٩٧ .

ثم هو يتمنى أن يغير الدهر من عادته فيجد عند الممدوح ما ماطله فيه ومنعه منه فتنعمر الأيام ويظفر بمطلوبه وذلك فى قوله :

وَقَدْ تُحِدثُ الأيَّام عِنْدَكَ شِيمَةً وَتَنْعَمِرُ الأوْقَاتُ وَهِى يباب

وانظر كيف يعقد مقارنة بين الممدوح . وبين غيره من الملوك فيجعله أسدا ويجعلهم ذئابا ؟ وكيف يتوسل إلى ذلك بالتصوير البيانى فى قوله[1] :

جَرَى الخُلْفُ إلاَّ فِيكَ أنَّكَ وَاحِدٌ وأنَّكَ لَيْثٌ والمُلُوكُ ذِئَابُ

فهو يصفه بالتفرد والامتياز فالخلاف جار فى كل شىء إلا فى تفوقه على الأقران ، والأشكال والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الممدوح وسط غيره من الملوك بالأسد وسط الذئاب ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود الشىء وسط شىء آخر .

ثم يمتاز عليه بالتفرد ، والتفوق .

وتراه يشبه الممدوح بالبحر فى حالتين كما فى قوله [2] :

هُوَ البَحْرُ غُصْ فِيه إذَا كَانَ راكِدًا على الدَّرِّ واحْذره إذا كَانَ مُزْبِدا

فَإنِّى رَأَيْتَ البحَر يعثُرُ بالفَتَى وهَذا الذِى يأتِى الفَتَى مُتَعَمِّدا

فالشاعر يمدحه بأنه كالبحر . ولكن البحر ليس على حال واحدة فتارة هائج غاضب ، وأخرى هادئ راكد . وهو فى حال الركود وديع مسالم مأمون وفى حال الثورة غضوب يبتلع الأعاصير ويطوى فى أعماقه من ترميه مقاديره بين مياهه وأمواجه . . كذا الممدوح فإنه فى حال الرضا سلسبيل جار ، وهمسات أغصان وفى حال الغضب إعصار مدمر ، ونار حارقة والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الممدوح فى نفعه وضرره نفعه لمن جاء مسالما . وضرره لمن جاء مغاضبا . بالبحر إذا سكن أمكن امتطاء ثبجه ، والغوص على ما فى أعماقه من جواهر . وإن هاج وقذف بالزبد وجب الابتعاد عنه والحذر منه . ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود الشىء ينفع ويضر ينفع فى وقت المسالمة ويضر فى وقت الهيجان والمغاضبة .

---

(١) الديوان ١/١٩٩ .

(٢) المرجع السابق ١/٢٨٢ .

ثم انظر إلى هذا الممدوح وإلى بسط سلطانه وسعة ملكه وكيف أن غيره من الملوك يخشع له ويسجد ؟

وذلك فى قوله :

تَظَلُّ مُلُوكُ الأَرْضِ خَاشِعةً لَهُ ... تُفَارِقُهُ هَلْكَى وتلْقَاه سُجَّدَا

وَتُحِيى لَهُ المَالَ الصَّوارِمُ والقَنَا ... ويَقْتُلَ مَا يُحْيى التبَسُّمَ والجَدَا

وانظر إلى الاستعارة فى البيت الثانى : كيف أثبت أن هذا الممدوح شجاع كريم وأنه يفرق فى السلم ما جمعه فى وقت الحرب !

وانظر إليه كيف يجعل من الممدوح معلما يعلم السحاب السارى والغادى كيف يمنح ويعطى؟ وذلك فى قوله[1] :

تُسَايِرُكَ السَّوارِى والغَوَادى ... مُسَايِرةَ الأَحبَّاءِ الطِّرَابِ

تُفِيدُ الجُودَ مِنْكَ فَتَحتَذِ بِه ... وَتعْجِز عَن خِلائِقِكَ العِذَابِ

فالسحاب الذى يحمل المطر السارى منه والغادى يتبع الممدوح فى سيره مسايرة الحبيب للحبيب إنه يمشى وراءه ليتعلم منه الجود والعطاء فيعطى كما يعطى ويجود كما يجود ولئن كان المطر هنا هو المعادل الموضوعى لسيف الدولة فيحتذيه فى التدفق والعطاء إلا أنه يعجز عن أن يرقى إلى مستوى أخلاقه فيحتذيه فيها والتشبيه يقوم من خلال تشبيه السحب وهى تسير مع سيف الدولة لتحتذى به وتقلده فى جوده بمسايرة الحبيب للحبيب فى الحرص على الملازمة ، والإفادة منه إن الشاعر يرى فى شخص الممدوح النموذج والمثال فى الكرم والعطاء فلا يجعله مشبها وإنما يجعله مشبها به يتبعه ليستفيد منه ويتعلم ، ولئن استطاع أن يقلده فى جوده فإنه قد عجز عن أن يسايره فى أخلاقه وجميل صفاته :

وانظر إلى هذا التخييل الجميل الذى بث الحياة فى السحب فجعلها تتعلم ، وجعلها تعجز عن أن تماثله فى أخلاقه وفى ذلك تكثيف للتصوير . وشبيه بهذا قوله[2] :

أَلَمْ يسْأَلِ الوبْلُ الذِى رَامَ ثِنْيَنَا ... فَيُخبِرَهُ عَنْكَ الحَدِيدُ المُثَلَّمُ

---

(١) الديوان ١/٤٧ .

(٢) المرجع السابق ٣/٣٥٥ ، ٣٥٦ .

وَلَمَّـا تَلَقَّـاكَ السَّـحابُ بِصَـوبِه تَلَقَّـاهُ أَعَلـى مِنْـه كَعْبـاً وأَكْـرَمُ
تَـلاَكَ وَبَعْـضُ الغَيْـثِ يَتْبَـعُ بَعْضَـهُ مِـنَ الشَّـامِ يَتْلُـو الحـاذِقَ المَـتعَلمُ

وانظر إلى الاستفهام الذى يحمل قدرا كبيرا من التعجب إذ كيف فات السحاب الذى يهطل الآن ويحاول أن يَعُوق مسيرتنا أن يسأل عن وجهتنا ومقصدنا ليتلقى الإجابة من الحديد المفلول المثلوم ، وليعرف أنه لا شيء يقدر على ذلك وهكذا أراك المطر من شأنه أن يسأل وأراك الحديد وهو يخبر ويجيب استعارة بالكناية .

وفى البيتين الثانى والثالث : يريك السحاب فى رتبة دون رتبة الممدوح ويجعل الممدوح متفوقا عليه ، فهو أعلى منه كعبا ، وأكرم ، ولهذا فهو يتلوه ليتعلم منه ويستفيد إذ إنه خبير حاذق ومن يريد التعلم عليه أن يتبع الحاذق المعلم ، والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه السحاب بالممدوح فى التدفق والعطاء فى البيت الأول .

وفى البيت الثانى : تشبيه السحاب وهو يتبع الممدوح ويتلوه بالمتعلم الذى يتبع الحاذق المعلم ووجه الشبه هو الحرص على المصاحبة والإفادة منها .

وأنت ترى من خلال الصورة البيانية فى شعر المديح أن المتنبى وصف ممدوحه بالشجاعة ، والكرم ، والوضاءة ، والقوة ، والمهارة ، واستعمل الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والأفلاك ، والسيف ، والبحر ، والأسد كحد آخر للصورة على عادة الشعراء الذين يديرون مديحهم على هذه الأشياء فمدحه تقليدى يسير على نمط الشعراء المادحين . ولكن الشيء الذى لا يمكن أن تخطئه العين ، ولا يغيب عن البصيرة ، أن المتنبى لم ينشئ صوره بعيدا عن جوه النفسى ، وآماله المتأججة ، ورغباته المتوثبة ومطامعه التى لا تتوقف عند حد ، فالبحر والسحاب والشمس والقمر والسيف والأسد لها عند الشاعر أجواء نفسية تتمثل فى رغبته بأن يحظى بعطاء الممدوح ، وأن ينال بره ووصله فإذا كان الممدوح بحرا ، فإن البحر لا يمنع ماءه عن أحد ، وأنه يفيض بالعطاء ، ويتدفق به . وإذا كان الممدوح شمسا فإن الشمس ينعم بدفئها القاصى والدانى ، ويعم ضوؤها الوهاد والنجاد ، ويصل إلى القريب والبعيد ، ولابد أن يكون الشاعر واحدا ممن يصل إليهم ماء البحر ، ونور الشمس وقل مثل ذلك فى النجوم وغيرها إن هذه العناصر قد وظفها الرجل فى صوره وهو يرفع مديحه إلى ممدوحه لكى يبث رغباته من خلالها وإن كان لم

يفصح عن ذلك صراحة وإنما ترك الصورة وهى تتفاعل من خلال السياق تومئ وترمز إلى ما يريد ويرغب .

وانظر إلى لون آخر من ألوان التصوير اتخذ مواده من السخاء والإسلام والهام ، والهيجا والعيون والأسنة والهموم والفؤاد فى قوله[1] :

كـأنَّ سـخَاءكَ الإسـلامُ تُخْشَـى ... إذَا مَـا حُلْـت عَاقِبَـة ارتِـدَادِ

كـأنّ الهَـامَ فـى الهَيْجَـا عُيُـونٌ ... وَقَـدْ طُبِعَـتِ سُـيُوفُك مِـنْ رُقَـادِ

وَقَـد ضُـعْتَ الأسِـنَّةَ مِـنْ هُمُـومٍ ... فَمَـا يَخْطُـرْنَ إلاَّ فِـى فُـؤادِ

فالكرم بالنسبة للممدوح شريعة لا يتحول عنها ، ولا يحيد ، إنما ينميها ويضاعفها ، ويحافظ عليها .

وأنت ترى التشبيه يقوم من خلال تشبيه حفاظ الممدوح على كرمه وسخائه واستمراره ، بحفاظ الإنسان على دينه الإسلامى لا يتهاون فيه ويخشى عاقبة الارتداد عنه .

أرأيت كيف نقل الشاعر رغبته إلى ممدوحه فى لطف وكياسة ؟

وكيف جعل من سخاء الممدوح وكرمه إسلاما يحافظ عليه وديـنـا لا ينسخ ولا يبدل ؟ وإذا كان الكرم عند الممدوح بهذا الحد فمن أولى من الشاعر به ومن أحق ؟

وفى البيت الثانى يمدحه بالجرأة والشجاعة وأن سيفه قد ألف قطع الرءوس ، وجذ الرقاب ، كما ألف النوم العين ، وقد اعتادت النوم ، والتشبيه يقوم من خلال تشبيه السيوف وقد اعتادت قطع الرءوس بالنوم اعتاد العين وألفها فلا يحل إلا فيها ووجه الشبه كون الشىء يعتاد الشىء فلا يحل إلا فيه وفى هذه الصورة مجانسة بين (الهام والعين) وتجريد بين (السيف والرقاد) .

وفى البيت الثالث : يؤكد وصفه بالشجاعة ويبين أن أسنته لا تقع إلا فى قلوب وأفئدة أعدائه كأنها الهموم التى لا تحل إلا فى القلوب . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الأسنة وهى تقع فى قلوب الأعداء بالهموم التى لا تحل إلا فى الأفئدة والقلوب . ووجه الشبه : حال الشىء لا يقع إلا فى شىء آخر ولا يحل إلا فيه

---

(١) الديوان ١/٣٥٩ .

وفى الصورة تجريد فى قوله : (الأسنة من هموم) وأنت ترى أن الشاعر سلك طريقا آخر فى إثبات شجاعة ممدوحه حين أراد أن يقنعنا بأن تلك الشجاعة ليست طارئة ولا وافدة وإنما هى شىء فطرى مركوز فى طبعه وفى تكوينه لا تنفصل عنه ولا تغيب وحين أراد أن يتخذ لشجاعته مثالا لم يكتف بعقد المشابهة بين المتماثلين والمتناظرين ، وإنما تجاوز ذلك إلى ما لا خلاف عليه ولا شك فيه ، فلا خلاف على أن النوم لا يحل إلا فى العيون كما أنه لا شك على أن الأفئدة هى مستودع الهموم ومستقرها وهنا اختار للتنظير أفقا آخر فأثبت لسيفه ما هو ثابت للنوم وللهموم وقاس سيفه عليهما فإذا كان من عادة النوم أن يحل فى العيون فإن من عادة سيف الممدوح أن يحل فى القلوب والأفئدة وهكذا تأخذ الصورة دورها فى الإيحاء بالمعنى .

مع أن طابعها هنا هو التجريد الذى تخطى حدود الصورة الحسية .

وانظر إلى تبيان لذة الجود ولذة حضور المعارك فى قوله[1] :

كَأَنّكَ بِالفَقْرِ تَبْغى الغِنَى ... وبالمَوتِ فِي الحرْبِ تَبْغى الخُلُودَا

فهو يريد أن يقول : إنه يهلك ماله بالعطاء . ويجد فيه لذة ومتعة كلذة السرور عند غيره ممن يأخذ المال ويغتنى به .

كما أنه شجاع مقدام أخو حرب ملازم لها يغشى أهوالها ، ويخوض مخاطرها ، ويرى فى الاستشهاد فيها خلودا دونه أى خلود . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه لذته وسروره فى إهلاك ماله والجود به بلذة وسرور من يأخذ المال ويغتنى به ووجه الشبه هو السرور والمتعة كما يشبه حرصه على الموت ، فى الحرب والاستشهاد فيها بالخلود فى دوام الذكر ، وطيب الأحدوثة وقبله قوله[2] :

قَتَلْتَ نفُوس العدا بِالْحَدِيـ ... ـدِ حتَّى قَتَلْتَ بِهِّن الحَدِيدَا

فأَنْفَدْت مِنْ عَيْشِهِن البَقَاء ... وأَبْقَيْتَ مِمّاً مَلَكْتَ النُّفُودا

أرأيت إلى الشجاع المقدام فى البيت الأول : وهو ما يزال يضرب بسيفه ويضرب فيجذ الرءوس ، ويفصل الأعناق حتى قتل من شدة الضرب ومن كثرة القتل الحديد الذى يضرب به وثلمه وكسره .

---

(١) الديوان ١/١٧١ .

(٢) المرجع السابق ١/٣٧٠ ، ٣٧١ .

أرأيت كيف يشير التعبير إلى القوة والشجاعة ؟

وفى البيت الثانى : ترى هذا الشجاع . وهو يختطف الأرواح اختطافا ويفنى نفوس الأعداء إفناء ويهلك ماله إهلاكا .

وكيف عبر عن إفناء النفوس بقوله :

فأَنْفَـدْت مِـنْ عَيْشِـهِن البَقَـاء

وكيف كنى عن الأعداء بقوله : عيشهن؟ وكيف سلط (أنْفَد) بمعنى (أفنى) على البقاء أى أنه أنهى بقاءهم وأفناه . وكيف أوهم السامع فى أول الشطر الثانى من البيت بأنه أبقى شيئا وادخره فلما وصل إلى نهايته أدرك أنه لم يبق له شيئا سوى الفناء والانتهاء؟

وذلك فى قوله :

(وأَبقَيْـتَ مِمـاً مَلَكْـتَ النُّفُـودا)

ومما يتصل بالتصوير بالموت والإفناء قوله[1] :

لا يعْتَقِـى بَلَـدًا مُسْـمَراهُ عِـنْ بَلَـدٍ كـالموتِ لَـيْس لَـه رِىّ وَلاَ شِـبَعُ

يمدحه بأنه لا يعوقه شىء فى سيره إلى البلاد يفتحها فسيره إلى بلد آخر . كالموت الذى يعم فلا يرتوى ولا يشبع . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه سيف الدولة وهو يغزو البلاد ويفتحها ولا يتوقف لأنه لا يعوقه شىء بالموت الذى يعم الدنيا ولا يرتوى أو يشبع ووجه الشبه بين الطرفين هو ما بينهما من العموم . وانظر إلى التعبير عن عدم قناعة الموت بكثرة من يفنيه بقوله : ليس له رى ولا شبع وقد ترى فى استعارة الرى والشبع للموت بعدا وإغرابا . ولكن المتنبى يريد تصوير ممدوحه بأنه مَنْهُومٌ إلى غزو البلاد وفتحها وإهلاك أعدائه وإبادتهم وأنه فى ذلك كالظامى الذى يشرب ولا يرتوى وكالجائع الذى يأكل ولا يشبع فاختار الموت للتنظير به فى هذا المجال وكان الموت وما يزال منذ أن كان آدم الأول وحواء الأولى إلى يومنا هذا وإلى يوم أن يقوم الناس لرب العالمين ، مختطفا للأرواح مفنيا للنفوس ولم نره كَلّ أو مَلّ أو أصيب بالسأم أو توقف عند زمن وحد .

---

(١) الديوان ٢/٢٢٤ .

فصح التنظير به فى هذا الباب . وصح التعبير عن عدم توقف إهلاكه وعدم قناعته بكثرة من يفنيه بأنه ليس له رى ولا شبع .

وقد ترى الشاعر وهو يصور المكارم فيجعل منها أبكارا ويجعل منها غير أبكار ويرتفع بممدوحه إلى مستوى أنه لا يباشر إلا أبكارها وأماَجِدَها وذلك فى قوله[1]:

أرى القَمَر ابنْ الشّمسِ قَدْ لَبِس العُلاَ رؤيْـدك حتـى يلـبس الشَّـعَرَ الْخَـدُّ
وَبَاشَـــر أَبْكَـــار المكَـــارِم أمـــرَدَا وَكَـــان كـــذا آبـــاؤُهُ وَهُـــمْ مُـــرْدُ

فقد جعل الممدوح قمرا وجعل أباه شمسا واستعارهما لهما استعارة أصلية كما جعل العلا ثوبا يلبسه الممدوح استعارة مكنية وهكذا أراك إياه رفيع الشأن ، نابه الذكر عالى المنزلة والمكانة هذا فى البيت الأول :

وفى البيت الثانى : أراك المكارم أبكارا وغير أبكار

وجعل الممدوح لا يباشر سوى أبكارها على سبيل الاستعارة إذ إنه لا يفعل سوى المكارم البكر التى لم يسبقه إليها أحد منذ أن كان ناشئا صغيرا كما كان يفعل آباؤه والتشبيه يقوم بين تشبيه فعل الممدوح للمكارم البكر وهو ناشئ بفعل آبائه لها ووجه الشبه دوام الفضل واستمراره .

وانظر كيف يجعل من الممدوح عذرا من ذنب بنى الدنيا فى قوله[2] :

أَزَالَـــتْ بِـــكَ الأيـــامُ عَتْبِـــى كأنَّمَـــا بَنُوهـــا لَهَـــا ذَنْـــبٌ وأنـــت لهـــا عُـــذْرُ

فهو يمدحه بأنه قد أحسن إليه فأنساه سيئات أهل الدنيا فى حقه . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الممدوح وقد أحسن إليه بعد ما أساء إليه بنو الدنيا ، فأزال عتبه عليهم بالعذر يجىء بعد الذنب فيزيله ، ويمحوه ، ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من وجود الحسنة تأتى بعد السيئة فتذهب بها وتمحوها ومما يتصل بنفسية الشاعر حديثه عن الحلى وهو يصور سيف الدولة وقد عاد ظافرا منتصرا فى قوله[3]:

وعُـــدْتَ إلـــى حَلَـــب ظـــافرًا كعَـــوْدِ الحُلِـــىّ إلـــى العَاطِـــلِ

---

(١) الديوان ٢/٨ .
(٢) المرجع السابق ٢/١٥٩ .
(٣) المرجع السابق ٣/٣٢ .

فهو يشبه عودته إلى حلب ظافرا بعودة الحلى إلى العاطل التى لا حلى عليها والجامع بين الطرفين هو السرور والسعادة .

ولاحظ كيف عبر عن العود الحميد بعود الحلى ، والحلى لها عند الشاعر مقام كريم ، لا ينازعها فيه غيرها فرغباته إلى الدراهم والدنانير ، رغبة ملحة لا تنفد ولا تنتهى وشوقه إلى المال شوق موصول غير مقطوع ، ويحسن أن أختم تصوير المديح بهذا التشبيه البديع فى حسن تصوير المعنى حين يوازن بين ممدوحه وبين غيره فيرى ممدوحه يتفوق على هذا الغير فى العطاء ، ومحامد الفعال . ويرى نفسه وقد لفظ الناس جميعا لما بلغه ووصل إليه حتى لكأنهم جميعا زاد القادم الجاف اليابس الذى لا يسمن ولا يغنى من جوع فيتخفف منه ، ويطرحه وراء ظهره يقول فى ذلك[1] :

كَرِيم نَفَضْتُ النَّاس لمّا بَلَغته كأنهم مَا جَفّ من زَادِ قَادِمِ

وانظر إلى هذه الاستعارة فى قوله : (نفضت الناس) وكأن الناس قد تحولوا فى خيال الشاعر إلى سقط المتاع المهمل الذى يُنْفَض ويتخفف منه .

ثم انظر إلى التشبيه الذى يقوم من خلال تشبيه حال الشاعر وقد وصل إلى الممدوح فلقى من كرمه ، وبره وعطائه ما جعله يلفظ غيره ، ويستغنى به عمن سواه ، بحال القادم من سفر وقد وصل إلى شاطئ السلامة ، وبر الأمان فرمى حثالة زاده ، ونفض يابسها ، لاستغنائه عن ذلك بعد الوصول . والجامع بين الطرفين : هو هيئة الشىء العظيم الخطير يضيع ويتلاشى فى حضرته الشىء التافه الحقير ، ويستغنى عنه .

ويظهر من خلال هذا العرض فى تصوير المديح أنه كان واحدا من الروافد الكثيرة التى ساعدت فى تخلق الصورة البيانية عند الرجل ونموها نموا طبيعيا على أنه من غير الغائب وقد سبقت الإشارة إليه أن تصويره فى المدح كان تصويرا تقليديا فهو قد مدح بالفضائل كالشجاعة ، والعقل ، والعلم ، والكرم كما أنه

---

(١) الديوان ٤/١١٧ .

استعار من الطبيعة عناصرها ، وموادها ، كالشمس ، والقمر ، والنجوم ، والأفلاك ، والبحر ، والأسد ، والسيف ، والرمح .

وغير ذلك مما وظفه فى صوره واستثمره فى مدائحه الذى حاول جاهدا أن يسكب من ذات نفسه عليها فخرجت إلى دنيا الناس وهى مزيج فى غالب الأحيان من الرؤية الباطنية والمشاهد الحسية مع إشراك نفسه مع الممدوح فى مدائحه . على أنه مما يجب أن يشار إليه ولا يغفل ، أن صوره فى بعض الأحيان فى مجال المديح كانت سطحية هامشية لا تلمس فيها عمق الإحساس ، ولا حرارة العاطفة ، ولا توهج المشاعر ، ولا صدق الانفعال ، وتعليلى لذلك فيما يظهر لى ، أن الرجل كان غير منفعل بموضوعه وغير مقتنع بشخصية من يقدم على من يمدحهم ولم يكن يرى فيهم النموذج والمثال وأنه قد سيق إلى مدحهم رغبة فى العطاء ، وطمعا فى النوال ، مع إحساسه بعظمة نفسه التى تجعله فوق من يمدح . لذلك كان يقدم على مديح أمثال هذه النماذج وهو غير معبأ الشعور ولا ممتلئ من داخله بشخصية من يمدحه .

ويبدو أنه لم يمدح صادقا مع نفسه سوى سيف الدولة .

تصوير الهجاء :

أنشد المتنبى الشعر فى فن الهجاء وله فيه القول المر ، والكلام المزرى الممض انظر إليه فى هجاء ابن كردس[1] :

فَلَوْ كُنْتَ أمرأً يُهْجَى هَجَوْنَا ولكنْ ضَاقَ فِتْرٌ عن مسيرِ

يصفه بأنه خسيس القدر ، وضيع الأصل ، ضعيف الشأن ، خامل الذكر ، يرتفع الهجاء عنه ، ويسمو عليه والتشبيه غير المباشر فيه واضح وهو يقوم من خلال تشبيه حاله فى ضعف شأنه ، وضآلة حجمه ، وخسة نفسه ، وعدم اتساع قدره لجولات الهجاء ، وصولاته بحال الفتر فى ضيق مساحته وفى كزازته وكونه أضيق وأقل من أن يتسع لمسير .

---

(١) الديوان ٢/١٤٤ .

البيت كناية عن غاية ما ينتهى إليه الازدراء والاحتقار فهو ليس بشىء حتى يؤبه به ويحسب حسابه .

وانظر إلى وصف أهل زمانه ورأيه فيهم بما يدل على التدنى الشديد والاحتقار المطلق الذى يراهم عليه[1] :

أَدُمّ إلـــى هـــذَا الزّمَـــانِ أُهَيْلَـــهُ فَـــأعْلَمُهُم فَـــدْمٌ وأَحْـــزَمُهُمْ وغْـــدُ
وأكْـــرَمُهُم كلـــبٌ وأبْصَـــرُهُم عـــمٍ وأَسْـــهَدُهُم فَهْـــدٌ وأَشْـــجَعُهم قِـــرْدُ

فالشاعر يتحدث عن أهل زمانه ولقد صغرهم تحقيرا لهم وزراية بشأنهم ، وأضافهم إلى ضمير الغائبين ، ولم يصرح بذكرهم زيادة فى الاحتقار ، ومبالغة فيه ووصف أعلمهم بأنه كالفدم فى الغباء وإذا كان الأعلم غبيا على هذا النحو فكيف يكون حال العالم والجاهل؟

وأحزمهم كالوغد اللئوم فى حقارته وأكرمهم كالكلب فى الخسة والدناءة .

وأكثرهم سهادا ينام نوم الفهد فى الكثرة ، وأشجعهم كالقرد فى الجبن ، وجاءت الصور ممثلة لنفسيه الشاعر القلقة الموتورة ، ولنظرته السوداء المظلمة ، ولرأيه فى الناس وفى المجتمع .

استمع إليه وهو يهجو أهل الدهر جميعا ويستثنى نفسه فى قوله[2] :

وَدَهـــر ناســـه نـــاسٌ صـــغَارُ وإنْ كَانَـــتْ لَهُـــم جُثَـــثٌ ضِـــخَامُ
وَمَـــا أَنـــا مِـــنْهُمُ بِـــالعَيشِ فِـــيهِم وَلكِـــنْ مَعْـــدِنُ الـــذّهَبِ الرَّغَـــامُ
أَرَانِـــبُ غَيْـــرَ أَنَّهُـــم مُلُـــوكٌ مُقَتَّحـــــةٌ عُيـــــونُهُمُ نِيَـــــامُ

فهو يتهم أهل دهره جميعا بأنهم صغار حتى ولو كانت أجسادهم ضخمة ثم ينفى عن نفسه أن يكون كبنى دهره ، حتى ولو كان يعيش بينهم ؛ لأنه كالذهب يحتفظ بقدره مهما كان موجودا فى أعماق الثرى . ثم يصفهم بأنهم كالأرانب فى الضعف ، والجبن ، والغفلة ، وقد بالغ فى تحقيرهم إذ كان المقدر أن يقول :

ملـــوك غيـــر أنهـــم أرانـــب

---

(١) الديوان ١/٣٧٤ .

(٢) المرجع السابق ٤/٧٠ .

ولكنه عكس نكاية بهم حين وجد فيهم طبع الأرانب أقوى وأغلب ، والشاعر يستخدم التشبيه الضمنى كثيرا وهو ما يدل على قدرته التصويرية فأنت تراه فى البيت الثانى وهو يشبه حاله من أنه ليس من أهل دهره وإن كان يعيش بينهم بحال الذهب ليس من التراب مع أن مقامه فيه . ودع هذا وتأمل كيف يتوسل بالتشبيه الضمنى فى تحقير أهل زمانه وذلك فى قوله[1] :

أفاضِلُ النّاسِ أغراض لِـذَا الـزَّمَنِ ... يَخْلُو مِنَ الهَمّ أَخْلاَهُمْ مِنَ الفِطَنِ

وإنّمَا نَحْن فِي جيلٍ سَواسِيةٍ ... شَرٌّ عَلى الْحُرّ مِن سُقْمٍ عَلى بَدنِ

حَوْلِى بِكُلّ مَكَانٍ مِنْهُم خِلَقٌ ... تُخْطِى جِنْتَ فى اسْتِفْهَامِها بمَنِ

فهو يرى فى الشطر الأول من البيت الأول أن أفاضل الناس ويقصد بذلك نفسه ، ومن على شاكلته أغراض لسهام الزمن ، ولنوائب الدهر ومصائبه لا يسلمون من فواجعه ، ولا ينجون من مكايده .

والرجل يئن متوجعا ، ويشير إلى ما يعانيه ويقاسيه من المجتمع وهو النابه الماجد ومن الناس الذين لا يعرفون للمواهب قدرها فيحفظونها فى أعلى مكان والتشبيه يظهر من خلال تشبيه أفاضل الناس بالأغراض الواضحة الظاهرة الذى يوجه الزمن إليها سهامه ونباله فهم هدف للرمى ، وغرض مقصود للزمن والصورة فى الشطر الثانى :

يَخْلُو مِنَ الهَمّ أَخْلاَهُمْ مِنَ الفِطَنِ

تكنية غير صريحة تفهم من مضمون الكلام ، ومن خلال سياقه إذ إن مفهوم : يخلو من الهم أخلاهم من الفطن . تشبيه الخالى من الفطنة بالبهائم فى عدم الحس وإذا كان الشاعر فى البيت الثانى يبث وجده وشكواه من جيل هو فيه وهو شر على الحر من السقم يصيب البدن ، ويفتك به .

فإنه فى البيت الثالث يؤكد التشبيه الضمنى فى البيت الثانى حين يتحدث عن الناس حوله ويصفهم بأنهم مجرد خلق هكذا مجرد صور مرسومة ، وهياكل موجودة من غير أن يكون لهم حَظّ من البشرية الحقة ، والإنسانية الأصيلة ولذا فهم كالبهائم فى عدم الإدراك ولا يستفهم عنهم بمن التى يستفهم بها عن العاقل .

---

(١) الديوان ٤/٢٠٩ ، ٢١٠ .

انظر إلى الشاعر وهو يبين المظاهر الخارجية للمهجو فى هجائه لكافور[1] :

وتُعْجِبُنِى رجلاك فِى النَّعْلِ إننى ... رَأَيْتُك ذَا نَعْلٍ إذَا كُنْتَ حَافِيَا

وأَنَّكَ لاَ تَدْرِى أَلَوْنُكَ أَسْوَدُ ... مِنَ الجَهْلِ أمْ قَدْ صار أبْيضَ صافِياَ

ويُذْكِرُنِى تَخْيِيطُ كعْبِكَ شقَّه ... وَمَشْيك فى ثوبٍ من الزَّيتِ عَارِيَا

وَلْولاَ فُضُول النَّاسِ جُثْتُكَ مَادِحا ... بَما كُنتُ فِى سرِّى بِه لَكَ هَاجِيا

فَأَصْبَحْتَ مَسْرُوراً بِمَا أَنَا مُنْشِدٌ ... وإنْ كَانَ بِالإنْشَادِ هَجْوُكَ غَالِيَا

فَإنْ كُنتَ لا خيرًا أفدْتَ فَإنَّنى ... أفَدْتُ بِلَحْظِى مِشفريْك المَلاَهِيَا

ومِثْلُك يُؤتَى مِنْ بِلاَدٍ بَعِيدَةٍ ... لِيُضْحِكَ ربَاتِ الحِدَادِ البَواكِيا

والصورة كلها كناية عن منتهى السخرية ، والازدراء ، والاحتقار واتخاذ المظاهر الشكلية واللونية أداة للعب ، واللهو والتسرية إذ إنها تمثل تهكما بكافور وتسرية وترويحا عن غيره ممن يراه برجليه المنتعلتين الحافيتين وبلونه الأسود وببلاهته وغفلته ، وبكعبه المشقق المخيط وبمشيه فى ثوب من الزيت بصفرته واتساعه وببلاهته ، وعدم ذكائه حتى ليحسب الهجو مدحا ، وهكذا استطاع أن يتقن الهجاء وأن يرى المتلقى المهجو بمشافره الغليظة وكعبه المشقق ورجليه المنتعلتين إذا كان حافيا لقد وضع مهجوه أمام النظارة والمشاهدين وهم يهتزون ويطربون من رؤيته وكيف لا يطربون ولا يضحكون ومثله يؤتى من بلاد بعيدة ليذهب أحزان الثكالى ويسرى عن ربات الحداد البواكى .

وقد تتكرر الصورة حين يصفه بالسواد والغلظ ، وضخامة المشافر فى قوله[2]:

وَأَسْوَدَ مشفره نِصْفُه ... يُقَالُ لَه أنتَ بَدْرُ الدُّجى

ولا أخالك إلا ستضحك من هذا الأسود الذى تضخم مشفره فصار حجمه يصل إلى نصف حجم صاحبه مع أن التهكم يبلغ مدى عظيما حين ترى أهل زمانه يثنون عليه بالكذب فيقولون له : أنت بدر الدجى سخرية وعبر بالمشفر وهو إنما يكون لذات الخف بدل الشفة استعارة أو مجازا مرسلا نظرا لغلظ شفتيه وضخامتهما .

---

(١) الديوان ٤/٢٩٥ ، ٢٩٦ .

(٢) المرجع السابق ١/٤٣ .

وانظر إلى المتنبى حين يتمادى فى هجائه لينال من مهجوه فى قوله[1] :

كـــأنَّ الأسَـــوْدَ اللَّابِـــىِّ فِـــيهِم غُـــرابُ حَوْلَـــهُ رخـــمٌ وَبُـــومُ

واللّابى : منسوب إلى اللاّبه ، وهى أرض ذات حجارة سود ، والسودان ينسبون إليها ، والصورة تقوم فى البيت من خلال تشبيه كافور ومن حوله الرخم والبوم ووجه الشبه هيئة الشيء التافه الحقير يحيط به ما هو أكثر منه تفاهة وأشد حقارة ، ولا يجب ألا ننسى الدوافع الذى دفعت الشاعر إلى أن ينال بهجائه من كافور هذه المواضع القاتلة ، وهى إصابته باليأس القاتل الذى أصابه بالإحباط حين لم يحقق عنده ما كان يسعى للحصول عليه وبعث بالحقد والضغينة والغضب فى فؤاده فجاءت صوره البيانية لتحكى أحاسيسه المتوثبة الغاضبة ولتتدنى بكافور إلى هذا الحد من الضعة والهوان ، ولتأخذ من شكله ، ولونه مادة مزرية للحديث عنه وهجائه ، والمبالغة فى هذا الهجاء وتجسيد القبائح وتضخيمها ولعل المتنبى قد أجاد وأحسن فى رسم الصور الهازئة الضاحكة وهو يعبث بمهجويه .

انظر إليه فى هجائه لابن كيغلغ[2] :

مَازِلْـــتُ أعرِفَـــهُ قِـــرداً بِـــلاَ ذَنَـــب صِـفْراً مِـنَ الْبـاسِ مَمْلـوءا مـن النّـزِقَ

كَرِيشَـــةٍ بِمهَـــبِّ الـــرِيحِ سَـــاقَطِةٍ لاَ تَسْـتَقِرُّ عَلَـى حـالٍ مـن القَلَـقِ

وأيْـنَ مَوقِـعُ حـدِّ السَّـيْفِ مِـنْ شَـبَحٍ بِغَيْـــرِ رَأسٍ ولا جِسْـــمٍ ولاَ عُنُـــقِ

والأبيات تكنى عن الهوان والضعة والخفة والجبن .

وانظر كيف جعل رصيده صفرا من البأس أى أنه غير شجاع .

ثم انظر كيف مثل النزق بسائل وجعله مملوءًا به استعارة .

ثم تأمل كيف بلغ به الهزء مداه قبل ذلك حين جعله قردا غير أنه لا ذيل له؟ وكأن الفارق بينه وبين القرد أن القرد له ذيل وهو بخلافه . ثم انظر إلى منتهى الاستخفاف به : وهو يصفه بالخفة التى لا تساويها خفة حين جعل منه ريشة وجعلها فى مهب الريح وجعلها ساقطة لا تستقر على حال من القلق .

---

(١) الديوان ١٥٢/٤ .

(٢) المرجع السابق ٣٥٩/٢ ، ٣٦١ .

ثم انظر إلى وصفه بغاية القبح ومنتهى الدمامة حين جعل منه غير شيء فهو شبح من غير جسم ، ولا عنق ، ولا رأس وليس يخاف ما فى التصوير من تهكم ، وعبث وازدراء وقد أخذ مادته من أشياء محسوسه ركز عليها ، وقبح من شكلها وأخرجها على هذا النحو العابث الساخر .

وانظر إلى ابن كيغلغ فى صورة ضاحكة أجاد الشاعر فَنَّ إخراجها وتصويرها وذلك فى قوله[1] :

يَمشـــى بأَرْبَعـــة عَلـــى أعْقَابِـــهِ تَحْـــتَ العُلُـــوجِ وَمِـــنْ وَرَاءِ يُلْجَـــمُ
وَجُفُونُـــه مـــا تســـتقرّ كَأنّهَـــا مطروفـــة أوْ فُـــتَّ فِيهَـــا حِصْـــرَمُ
وإذا أشـــار محـــدّثا فكأنَّـــهُ قِـــرْدٌ يُقَهْقِـــهُ أو عَجُـــوزٌ تَلْطِـــمُ

لقد رسم له صورة ساخرة من خلال مشيه إلى خلفه على غير العادة تحت العلوج و (الرجل الأعجمى) يلجم من ورائه .

وفى البيت الثانى : استمرار فى عرض الصورة الهزلية من خلال هذه الجفون المتحركة فى عصبية والتى لا تستقر على حال فما تكاد تفتح حتى تغمض وما تكاد تغمض حتى تفتح على نحو يثير الاشمئزاز ويبعث على الشفقة حتى لكأنها مطروفة أوفُتَّ فيها حصرم (عصير العنب الحامض) بما يخلفه فيها من أثر لا تقوى على احتماله .

وفى البيت الثالث : يصف ابن كيغلغ بأنه فى إشاراته وهو يتحدث يستدعى إلى ذهنك منظر امرأة عجوز شمطاء تلطم وجهها بيديها فى حركة عصبية مستمرة منفرة وقبيحة ، ويا له من حديث مقترنا بالإشارة من المتحدث العجوز لتجمع بين خستين خسة الحديث وقبحه وخسة الإشارة والضحك منها وعليها .

وأنت ترى من خلال التصوير البيانى فى شعر الهجاء أن الرجل قد وظف الجانب الحسى المثير للضحك ، والسخرية ، والتهكم وهو حين يعتمد فى تشكيل صوره على الجانب الحسى المثير للاشمئزاز فإنما ينقل رؤيته الباطنية ، وإحساسه الداخلى نحو مهجوه على أن هناك شيئا فى تكوين شخصية المتنبى كان يلهب ظهره ، ويدفعه دفعا .

---

(١) الديوان ٤/١٢٧ ، ١٢٨ .

إلى مثل هذا السلوك نحو من يهجوهم وهو أن كان يرى نفسه فوق الناس والمجتمع الذى ظلمه وسلبه حقا من حقوقه إذ إن المفروض بحكم كفاءته أن يكون المتبوع العزيز لا التابع الذليل ومن ثَمَّ بقى معه هذا الإحساس يراوحه ويغاديه ويصبحه ويمسيه فلما عجز عن أن ينال شيئا اشتعلت الثورة الغضبية فى أعماقه ، وتأججت فى داخله ، وتضخمت أمراض النفس الباطنة عنده من الحقد والحسد والضغينة ، فوجهتها قذائف مدمرة ، وسهاما مصيبة ، ونارا حارقة إلى المجتمع الذى رفع غيره عليه ، وأعطى سواه وحرمه وإلى الناس الذين لم ينصفوه ، ولم يقدروا موهبته ، ثم إلى الخصوم والأعداء .

تصوير الفخر :

والفخر نوع من المديح ولكنه مديح للشخص نفسه وذلك هو مدحك نفسك بالطهارة ، والعفاف ، والحلم ، والعلم والحسب وما يجرى مجرى ذلك[1] .

والمتنبى شاعر العظمة ، والكبرياء ، واعتزازه بنفسه ، وعلو همته ، وفروسيته وحسن بلائه جعله يشرك نفسه بالمديح مع ممدوحيه . وجاءت الصور البيانية فى شعره تعبيرا عن إحساسه الداخلى ، ونفسه الباطنة ، وروح التعالى التى تكمن فى حناياه وتظهر فى فعله وشعره .

انظر إليه كيف يجعل من نفسه شريكا لممدوحه أبى العشائر وكيف يضع نفسه معه فى قران واحد مما أسفر عنه التصوير فى قوله[2] :

لَيْسَ قَوْلِى فِى شَمس فعلك كالشَّمـ ـس ولكن فى الشَمس كالإشراق
شَاعِرِ المجْدِ خِدنه شاعر اللَّفْـ ـظِ كلاَنا رَب! المعانى الدِّقَاقِ
لَمْ تَزَلْ تسمع المَدِيح ولكن صَهَيلَ الجِيادِ غَيرَ النَّهَاقِ

فهو ينفى فى البيت الأول أن يكون قوله كفعل الممدوح بعد أن استعار لفعله الشمس لإضاءته ولإشراقته فقول الشاعر يدل على محاسن فعل الممدوح ويزينه ويجمله كالإشراق الذى يجمل الشمس ويزينها ، ويدل على محاسنها .

---

(١) الصناعتين ص ١٣٧ .
(٢) الديوان ٢/٣٧١ .

وأبو العشائر شاعر المجد ، العالم بدقائقه وأسراره ، والمتنبى شاعر اللفظ فيكون الشعر من المجد كالإشراق من الشمس ، وفهم التشبيه على هذا النحو يحتاج إلى الترفق والتسلسل فى الوصول إلى غرض الشاعر الذى هو مقصود الشعر ووجه الشبه هو الدلالة والتبين وتراه بعد ذلك فى البيت الثالث : يرفع نفسه على غيره من الشعراء .

فهو يقول لأبى العشائر : أنت تسمع الشعر من غيرى فأنت ملك والشعراء ينشدون بين يديك أشعارهم . . لكن فضل شعرى على أشعارهم كفَضل صهيل الجواد على نهيق الحمار . فالمشبه هو فضل شعره على أشعارهم والمشبه به هو فضل صهيل الجياد على نهيق الحمير .

وانظر كيف جعل من نفسه جوادا وجعل من غيره من الشعراء حميرا .

وكيف جعل من أصوات شعره صهيل جياد وجعل من أصوات أشعارهم نهيق حمير . وهكذا المتنبى أبدا ودائما .

وانظر كيف يمدح سيف الدولة فيمدح نفسه معه فى قوله[1] :

وَمَـا أَنَـا إلاَّ سَـمُهَرِيٌّ حَمَلْتَـهُ ... فَـزِيَّن مَعْروضـاً وَرَاعُ مُسَـدَّدَا

وما الـدَّهْرُ إلاَّ مِـنْ رُوَاة قلائِـدِى ... إذا قلت شعْراً أصبح الدهر مُنْشِدَا

فانظر إليه فى البيت الأول كيف يجعل من نفسه رمحا (سمهرى) يزين فى السلم ، ويخيف ويروع فى الحرب ، ويشبه نفسه مع سيف الدولة بالرمح المعروض مرة والمسدد فى نحور الخصوم ومقاتلهم مرة أخرى ، إشارة إلى الحاجة إليه ، وعدم الاستغناء عنه فى السلم والحرب .

ثم انظر كيف جعل من قصائده قلائد يتزين بها صدر الأمير واستعار القلائد للقصائد وكيف جعل الدهر واقفا يترقب فراغه من قول قلائده ، حتى يتلقفها ليذيعها ويتغنى بها .

والمتنبى يتوسل بالتصوير البيانى فيجعل من نفسه صخرة صامدة تثبت أمام من يزاحمه وتتكسر على صلابتها معاول الخصوم والأعداء .

---

(١) الديوان ١/٢٩٠ .

انـا صَـخْرَةُ الـوَادِى إذا مَـا زُوحِمَـت وإذا نَطَقْـــتُ فـــإننّى الجَـــوَزاءُ

فالشاعر كالصخرة التى لا تزاحم ولا تضيع لأنها صخرة الوادى وهى فى العادة صلبة بما يتعاورها من سيول وأمطار تجرف ما حولها ولا تتمكن من اقتلاعها ، بل تبقى راسية صامدة شامخة وهذا ما أضافه التقييد بكلمة (الوادى) .

وإذا كان قد جعل من نفسه صخرة الوادى التى تبقى مع ضراوة المزاحمة فإنه جعل من منطقه منطقا عاليا رفيعا لا يُرتَقَى إليه فى رفعة الجوزاء وارتقائها مما يشير إلى سلامة حديثه ، وترتيب أفكاره ، وحلاوة لسانه .

وانظر إليه وهو يمتلك قلب الأسد فى قوله[1] :

ولَقَـــدَ أَفنَـــتَ المَفَـــاوِزُ خَيلـــى قَبْـــلَ أَنْ نَلْتَقِـــى وَزَادِى وَمـــائى

وفُـــؤادِى مِـــن المُلـــوكِ وإن كـــا نَ لِسَـــانى يُـــرَى مـــن الشّـــعَرَاءِ

ولقد كنى فى البيت الأول عن صلابته وقوة احتماله من خلال إفناء المفاوز لخيله وزاده ومائه وهو تلميح للتحدث إليه بما تحمله فى سبيل الوصول إليه وما لقيه وهو فى الطريق قادما عليه من مشاق ، ومضنيات ومرهقات ، مما يستحق معها أن تضاعف له المكافأة وأن يجزل له فى العطاء جزاء وفاقا لما لقيه بسببه وما تحمله من أجله . مما يفهم من المعنى الثانى للنص ، وفى البيت الثانى يتحدث عن نفسه إذ إنه بين الأسد وجراءتها وجمال الإنسان ، وحسن تدبيره ولذا تراه يشبه نفسه بالأسد فى الجرأة والشجاعة .

وتراه يشبه نفسه بنجم سهيل فى قوله[2] :

وتنكِـــرُ مَـــوَتَهم وأنـــا سُـــهَيْلٌ طَلَعْـــتُ بِمَـــوْتِ أَوْلاَدِ الزِّنَـــاء

والصورة تستمد عناصرها من التراث العربى والتقاليد العربية إذ كان المعروف أنه إذا طلع نجم سهيل ماتت البهائم فجعل من نفسه سهيلا وجعل من أعدائه بهائم يموتون إذا ما طلع .

وترى النجم يتخذ أبعادا فى شعر المتنبى كمشبه به ، فتراه يجعل من نفسه جوزاء فى علو المنطق وتارة يجعل منها سهيلا التى تميت الحضور والأعداء وتارة يجعل منها نجما فى الرفعة والهداية وذلك فى قوله[3] :

---

(١) الديوان ١/٣٦ . (٢) المرجع السابق ١/١٢ . (٣) المرجع السابق ١/١٩١.

وإنّـى لـنجمٌ تَهْتَـدِى بِـى صُـحْبَتِى إذا حَـالَ مِـن دُونِ النُّجُـومِ سَـحَابُ
غَنِـىٌّ عـنِ الأوْطَـانِ لاَ يِسْـتَفِزُنِى إِلَـى بَلَـدٍ سَـافَرْتُ عنـهُ إِيَـابُ

فهو يفخر بأنه أخو أسفار يجوب المهامه ، والقفار ، ويعرف مجاهل الطريق ، فلا يخفى عليه منها شيء . لذا يقود رفقته إلى بر الأمان إذا جثم الظلام ، وغابت النجوم وراء السحاب الكثيف .

وانظر إليه وهو يشبه شعره مرة بالملك ومرة بالشمس فى قوله[1] :

إنَّ هَـذَا الشِّـعْرَ فِـى الشِّـعرَ مَلـكٌ سَـار فهْـوَ الشَّـمْسُ والـدُّنْيَا فَلَـكْ

فالشاعر يتغنى بشعره ، ويفخر به ، ويرتقى بمستواه ، ويجعل مكانه بالنسبة لغيره من الأشعار بمنزلة الملائكة من الناس . ثم يرتقى به إلى أفق آخر حين يشير إلى سيرورته ، وذيوعه ، وانتشاره فيثبت له أنه قد عم الآفاق ، وملأ الأجواء ، وطاف فى كل مكان ولم يتوقف عند حد وإنما اجتاز السدود ، وعبر الحدود وحلق فى السموات ، كالشمس التى تملأ الدنيا ، وتضيء الكون وينعم بدفئها وضوئها القاصى والدانى والمغرب والمشرق وإذا كانت الشمس تنجاب بسببها فلول الظلمة ، ويتقهقر أمام ضوئها زحف الظلام وتنهزم أمام طلائعها مواكب الليل ، فإن شعره كذلك يبدد ظلام الجهل ، ويبعث بأنوار العلم ، ويفتح مغاليق العقل ، ويعقد مع المعرفة نسبا وصهرا . الدنيا فلكه الدوار التى تردد أنغامه ، وترجع على وترها ألحانه .

وانظر إليه وهو يتغنى بشجاعته ويرد على أسئلة من يسأله خلال أسفاره ورحلاته عمن يكون؟ ومن أين جاء؟ وذلك فى قوله[2] :

تَغَـرَّبَ لاَمُسْـتَعْظماً غَيْـرَ نَفْسِـه ولا قَـابلا إلاّ لِخَالِقِـه حَكَمَـا
وَلاَ سَـالِكاً إلا فُـؤَادَ عَجَاجَـةٍ وَلاَ وَاجِـداً إلاَّ لِمَكْرُمَـةٍ طَعْمَـا
يَقُولُـون لِـى: مَـا أَنْـت فـى كـل بَلْـدةٍ وما تبتغى؟ مـا أَبْتَغِى جَـلَّ أنْ يُسْـمَى
كَـأنَّ بَنِـيهُم عَـالمُون بِـأَنَنى جَلُـوبُ إلَـيهِم مِـنْ مَعَادِنـه اليُتْمـا

فهو فى كل مكان مغربا مشرقا لا يستعظم سوى نفسه ولا يقبل سوى حكم ربه هذا إشارة إلى رفضه للدنية .

---

(١) الديوان ٢/٣٧٤ .
(٢) المرجع السابق ٤/١٠٧ ، ١٠٨ .

ثم هو شجاع يغشى المخاطر ، ويخوض المعارك والأهوال و لا يجد الطعم الحلو إلا فى القنا المشتجرة ، والسيوف المسنونة ، وفؤاد العجاجة ، ولاحظ كيف جعل للعجاجة فؤادا استعارة ؟

ثم كيف اختار الفؤاد بالنسبة للعجاجة؟ ليشير إلى أنه شجاع مقدام وأنه لا يقبل أن يكون على هامش المعركة أو فى أطرافها وإنما يكون فى قلبها ووسطها ثم تأمل كيف أثبت لنفسه عشق المكارم التى أثبت لها طعما على سبيل الاستعارة وأنه لا يجد طعما لشىء أىِّ شىء إلا للمكارم والمحامد ثم يثبت كثرة أسفاره فى البيت الثالث وأن الناس يسألون إياه عما يريده فيجيبهم بأن ما يريده أجل من أن يذكر اسمه لأن ما يريده قتل الملوك ، والاستيلاء على ملكهم؟

وفى البيت الرابع يشبه أبناء من يسألونه عما يطلبه بمن يعرف أنه سيجلب لهم اليتم بقتل آبائهم فى العلم والمعرفة .

ثم ينتقل من الافتخار بنفسه إلى الافتخار بقومه فيقول[1] :

وإنِّــى لَمِــنْ قَــوْمٍ كــأنَّ نُفُوسَــنَا بِهَـا أَنـفُ أَن تَسْـكُنَ اللَّحْـمَ والعَظْمـا

أرأيت إلى أى حد تبلغ بالشاعر روح التعالى؟ إن اللحم والعظم يضيقان عن سكنى نفوس هؤلاء . ولذلك فهى تحاول أن تجد لها مكانا أرحب واسع وليس هذا المكان سوى الإسراع إلى ميادين القتال ، وغشيان الحروب يبذلونها هناك فى مقام الشرف ابتغاء لطلب المحامد والمجد أرأيت كيف جعل من اللحم والعظم سكنا؟ وجعل من النفس جرما؟ جعل اللحم والعظم يضيقان عن سكن النفس . استعارة ثم كيف كنى بالتعبير كله عن عزتهم ، وسيادتهم ، وعشقهم للمجد الذى يتحقق عن طريق غشيان المخاطر والحروب؟ واقتحام الأهوال؟

إن ثورة الشاعر من خلال ألفاظه ثورة رافضة غاضبة والتصوير يحكى هذا « فعاطفة المتنبى مركزة عميقة . . . نار داخلية لا تراها وإن ألهبت اللفظ وأوقدت الصورة »[2].

---

(١) الديوان ١٠٩/٤ .

(٢) فى الميزان الجديد دكتور محمد مندور ص ٩٨ دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة ـ القاهرة .

أرأيت إلى قوله (وإنى لمن قوم كأن نفوسنا) وكان مقتضى الظاهر أن يقول بعد ذلك : «كأن نفوسهم» ولكنه التفت من الغيبة إلى المتكلم : إلى ذاته هو تضخيما لتلك الذات وتكبيرا لرفضها وغضبها . . وكيف شبه فى البيت نفوس قومه فى رفضها الدنية وسعيها لطلب المجد وبذلها فى ذلك المهج والأرواح فى فرح وسرور بمن تأنف السكنى والبقاء فى اللحم والعظم ووجه الشبه هو رفض الشىء التافه الذليل وكسب الغالى العزيز .

وقد يتجاوز فى التصوير الحد ، ويخرج عن كل عرف ودين حين شبه نفسه بالخالق الأعظم . فى قوله[1] :

كَأَنِّى دَحَوت الأَرْضَ مِنْ خِبْرَتى بِها كَأَنِّى بَنَى الإِسْكَنْدر السَّدَّ مِنْ عَزْمِى

فهو قد جاب الأرض نظرا لكثرة أسفاره فما يغيب عنه منها شىء بعد أن عرفها وخبرها حتى لكأنه قد دحاها لعلمه به .

والتشبيه ينعقد من خلال تشبيه نفسه بالخالق الأعظم فى علمه وقدرته ثم فى تشبيه عزم الإسكندر حين بنى السد بعزم الشاعر فى التصميم والصلابة . على أن هذا الشاعر المتعالى المتضخم المعتد بذاته ونفسه قد ترى له ما يفيد انكساره وتخاذله وتهافته كقوله[2] :

أَتَتْرُكُنِي وَعَيْنُ الشَّمْسِ نَعْلِى فَتَقْطَعَ مِشْيَتِى فِيهَا الشِّرَاكَا

والمعنى على أن الشاعر وهو فى حضرة الممدوح يرقى إلى مكان تكون عين الشمس نعلا له . فإذا ما فارقه الممدوح وتركه تخاذل ، وتهاوى والصورة تجرى على أساس تشبيه الشاعر نفسه وهو برفقة الممدوح وفى صحبته التى يكتسى بها فى أعين الناس ارتفاع شأن ، وعلو قدر بمن ينتعل عين الشمس فى الشرف والعلو كما يشبه نفسه حين يتركه الممدوح ويبتعد عنه بمن يمشى حافى القدمين وقد تقطعت نعله التى كانت من عين الشمس .

ويمكن أن يقوم التشبيه من خلال تشبيه حال الشاعر وهو بصحبة الممدوح وفى معيته فيزداد فى أعين الناس مهابة ويكتسى رفعة ثم يتركه ويفارقه فيهون أمره ،

---

(١) الديوان ٤/١٥٢ . (٢) المرجع السابق ٢/٣٨٩ .

ويضعف شأنه بحال من انتعل عين الشمس فلما مشى فيها انقطع شراكها وسقطت من رجله فى وجه شبه هو حال الشيء يعز ويرتفع فى وجود شيء آخر ثم يهون ويذل عند فقده وسواء عليك أعددت التشبيه من المتعدد أم من المركب فإنه يحكى تخاذل الشاعر ، وتهافته ، وانكساره .

وانظر إليه فى ضعفه وهو يقول[1] :

وَمَـا أَنَـا غَيْـرُ سَـهْمٍ فـي هَـوَاءٍ يَعُـودُ ولَـمْ يَجِـدْ فِيـهِ امتِسـاكَا

إن الشاعر يصور نفسه حال خروجه من عند عضد الدولة وحنينه إلى العودة إليه ، وعدم اللبث والإقامة عند أهله بالسهم الذى يرمى به فى الهواء فينقلب عدة مرات ثم يهبط إلى الأرض حيث لا يجد ما يمسك به فيبقى فيه .

والتشبيه يقوم من خلال تشبيه نفسه فى خروجه من عنده ، ورغبته فى سرعة عودته إليه بالسهم الذى يرمى به فى الهواء فينقلب مرات ثم يعود إلى الأرض ووجه الشبه بين الطرفين هو سرعة العودة وعدم المكث .

تصوير الرثاء :

أنشد المتنبى الشعر فى فن الرثاء وسبيل الرثاء أن يكون ظاهر التفجع بين الحسرة مخلوطا بالتلهف والأسف والاستعظام[2].

وفى رثائه لجدته تظهر عاطفته الحزينة الصادقة نحوها ، ويحاول أن يسكن لواعج الأسى التى تثور فى أعماقه ، وأن يهدأ نار الحرمان التى تضطرم فى وجدانه ، وأن يستنجد بواسع الصبر وهو يصطلى جحيم العذاب لمصرعها من خلال فلسفة الحياة وطبيعتها التى لا يبقى فيها شيء ولا يستمر وإنما يعود قطعا بعد أن يكون قد درج على مهد الحياة حينا للاختفاء وإلى ما كان عليه قبل الوجود من العدم ، والتلاشى ، والفناء ، والضياع انظر إليه وهو يقول[3] :

أَلاَ لاَ أُرِى الأَحْـدَاثَ حمـدًا وَلاَذَمّـا فَمَـا بَطْشَـهَا جَهْـلاً ولاَ كَفُّهـا حِلْمَـا

---

(١) الديوان ٢/٣٩٦. (٢) العمدة لابن رشيق ٢/١٤٧ .

(٣) الديوان ٤/١٠٢ .

إلَى مِثْلِ مَا كَانَ الفَتَى مَرْجِعُ الفتى يَعُودُ كما أَبْدى، وَيُكْرِى كَمَا أُرْمِى

فالأيام لا تبطش جهلا ، ولا تكف عن بطشها حلما ، لأنها تصدر عن مشيئة القدر العليا التى ليس إلى تعويقها من سبيل . ولذا فهو لا يحمد الحوادث ولا يذمها فالفاعل الحقيقى هو الله سبحانه وتعالى .

وأنت فى البيت الثانى : تلمس فلسفة الوجود والعدم فكل شىء يعود إلى أصله الحقيقى ، وإلى وضعه الطبيعى قبل الوجود والنشأة فإذا كان قد وجد من العدم فإنه يعود إليه ويرجع إلى حالته كما بدأ منها وينقص ما حدث فيه من الحياة كما زاد . والصورة تقوم من خلال تشبيه مرجع الفتى بعد موته إلى ما كان عليه قبل وجوده فى الفناء والتلاشى وتشبيه نقص ما حدث فيه من الحياة بمثل ما زاد فيها فى أنه لا سلطان له فى كل ولا قدرة . والتصوير يحكى عجز الإنسان وضعفه أمام قضية الوجود والعدم لا يتعلق بها سلطانه ولا تستطيع أن تتحكم فيها قدراته إنها حركة الحياة تمضى على غير إرادة الإنسان ولا رغبته . وعلى هذا فليس هناك مبرر لذم الأحداث أو مدحها ، لأن كل شىء بقدر وفى هذا لون من ألوان التسرية لما يعانيه الشاعر من فجيعة الرزء فى جدته ومصابه .

وانظر إليه وهو يئن ويتوجع فى حسرة لاذعة كاوية ، وحنين شاج مؤثر وذلك فى قوله[1] :

لَكِ اللهُ مِنْ مَفْجُوعَةٍ بِحَبِيبِهَا قَتِيلَةِ شَوْقٍ غَيْرَ مُلْحِقِهَا وَصْمَا

أَجِنُّ إِلَى الْكَاسِ التى شَرِبَتْ بِهَا وَأَهْوَى لِمَثْوَاهَا التُّرَاب وما ضَمَّا

وفى التصوير ترى العاطفة الصادقة التى تتماوج فيها انفعالات الحسرة والحزن ، والشوق ، والفجيعة المرة وانظر إليه وهو يرصد التحولات النفسية لجدته قبل موتها حيث أثبت لها الفجيعة وجعلها قتيلة الشوق إليه وهو شوق تمدح به ولا تذم وتأمل كيف جعل من الشوق قاتلا وجعلها قتيلة استعارة .

ثم انظر إلى أىّ مدًى وصل به الحزن ونال منه الأسى لفقد جدته حتى لقد صار يتمنى أن يشرب من كأس الموت التى شربت منها وأن يعيش أسير هوى التراب الذى دفنت فيه وضم جسدها .

---

(١) الديوان ٤/١٠٢ .

وانظر إليه كيف جعل من الموت شرابا وجعل له كأسا على سبيل الاستعارة ؟

ولا يغيب عن الشاعر أن يتوسل بالتصوير البيانى فى رسم صورة لشعور جدته وأحاسيسها قبل وفاتها حين وصل خطاب منه إليها وذلك فى قوله[1]:

أتاهَا كِتَابِى بَعْدَ يَأْسٍ وَتَرْحَةٍ ... فَمَاتَتْ سُرُوراً بِى فَمُتُّ بِهَا هَمَّا

حَرَامٌ عَلَى قَلْبِى السّرُور فَإِنَّنِى ... أَعُدُّ الّذِى مَاتَتْ بِهِ بَعْدَهَا سُمَّا

تَعَجَّبُ مِنْ خَطِّى وَلَفْظِى كَأَنَّهَا ... تَرَى بِحُرُوفِ السَّطْرِ أغربةً عُصْماَ

وانظر كيف تكون العاطفة الحزينة الصادقة فى هذه الأبيات امتدادا لها فيما سبق تلك العاطفة التى جعلته يحرم السرور على نفسه بعد أن أتاها كتابه على يأس فماتت سرورا من فرحها بوجوده وبقائه ومات هو مغموما مهموما عليها ، حزينا على فقدها . وانظر كيف تحول أثر الحزن على فقد جدته فى خيال الشاعر إلى موت على طريق الاستعارة ؟

ثم انظر إلى هذا التشبيه فى البيت الثالث والذى يحكى صورة لليأس القاتل الذى كانت تعيش فيه جدته بعد أن فقدت الأمل فى وجوده ولقائه . والتشبيه يقوم من خلال تشبيه البياض الذى تراه بين الأسطر فى رسالته المكتوبة منه إليها بالبياض فى الغراب الأعصم ووجه الشبه هو الندرة والقلة .

وتأمل الشاعر وهو يتوسل بالتصوير فى تبيان أن الفقيدة العزيزة التى غابت تحت الثرى لم يكن جسدها من لحم ، وشحم ودم وعظام وإنما كان من المسك الذكى فقال[2] :

فَوَا أَسَفاً ألاَّ أُكِبَّ مُقَبِّلاً ... لِرَأْسِكِ والصَّدْرِ الَّذَىْ مُلئا حَزْما

وألاَّ أُلاَقِى رُوحَكِ الطَّيِّبَ الذى ... كَأَنَّ ذَكِىَّ المِسْكِ كَانَ لَه جِسْما

فهو يأسى ، ويتأسف لأنه لم يجث مكبا على رأسها ، وصدرها مقبلا وأنت ترى كيف صار الحزم إلى هذا النحو الذى يملأ الصدر والرأس فصار مالئا والصدر والرأس مملوءين استعارة .

وفى البيت الثانى يشبه إهابها الطاهر وفيه روحها بالمسك الذكى فى طيب الرائحة .

---

(١) الديوان ٤/١٠٤ .

(٢) المرجع السابق ٤/١٠٦ ، ١٠٧ .

وإذا كنت تلمس الصدق فى هذه العاطفة الحزينة من خلال هذا الرثاء المتفجع فى جدته فإنك ترى روح المغالاة وتصنع المبالغة حين يبين أثر فقد المرثى محمد بن إسحاق التنوخى ودفنه فى قبره وذلك فى قوله[1] :

خَرَجُـوا بِـهِ ولِكُـلِّ بَـاكٍ خَلْفَـهُ صَـعَقَاتُ مُوسَـى يَـوْمَ دُكَّ الصُّـور

والشَّـمْس فِـى كَبِـدِ السَّـماءِ مَرِيضَـةٌ والأَرْضُ واجفـةٌ تكـادُ تمُـور

حتَّـى أَتـوا جَـدَثًا كـأنَّ ضَـرِيحَه فِـى قَلْـبِ كُـلِّ مُوحِّـد مَحْفُـورُ

والبيت الأول تصوير للهول الذى أصاب الناس يوم فقده وهم بين مغشى عليه وبين مأخوذ من شدة المصيبة ومن وقع الكارثة ، وفداحة الفجيعة لقد شبه ما غشى الناس من حزن ، وما أصابهم من هول أفقدهم وعيهم وأذهل عقولهم بما وقع لسيدنا موسى حين خر صعقا يوم دك الصور .

وفى البيت الثانى : تصوير للشمس الحزينة على فقده الموجوعة لغيابه إن أشعتها لتضعف وضوأها ليشحب . وسناها ليمتقع ويتضاءل مرضا على العزيز الراحل وتأثرا بغيابه .

وأنت ترى الشمس كيف تشبه فى شحوب نورها وهزال ضوئها بالمريضة فى الضعف والانكسار والأرض كيف تصير واجفة مضطربة .

وفى البيت الثالث : تصوير للناس وهم أمام قبر الفقيد يوارونه الثرى فيشبه ما أثاره ضريح الميت فى أعماق القلوب من وله وحزن بما تثيره الحفرة فى قلب كل موحد من الآلام والمواجع .

وفى تقديرى أن هذه المبالغات مرذولة تحس فيها التصنع وقبل هذه الأبيات قوله[2] :

مَا كُنْت أَحْسبُ قَبْل دَفْنِك فِى الثَّرى أن الكَواكِـبَ فـى التـرابَ تَغُـورُ

مَـا كُنْـت آمـل قَبْـل نَعْشِـك أنْ أَرَى رَضْـوَى عَلَـى أَيْـدِى الرِّجَـالِ تَسـيرُ

وهكذا أراك المرثى بعد دفنه فى الثرى كوكبا يغيب فى التراب كما جعل منه جبل رضوى العظيم قوة وحلما . تحمله يد الرجال على سبيل الاستعارة . وهكذا يستعير من الطبيعة عناصرها ويستخدمها فى تكوين صور الرثاء .

---

(١) الديوان ١٢٩/٤ ، ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق ١٢٩/٢ .

وقد تراه يستخدم التصوير ليبين أن محاسن الميت ، وثناء الناس عليه ، وذكرهم له كل هذا يجعله حيا وإن عده الناس ميتا كما فى قوله[1] :

كَفَلَ الثَّنَاء لَهُ بِرَدِّ حَيَاتِهِ لمّا انْطَوى فَكأَنَّهُ مَنْشُور

فذكر الميت بفضائله ومحاسنه وعدم نسيانه شبيه بوجوده بين الناس وعدم موته فى دوام الأثر والذكر .

ولكنك تراة يركب الشطط ويجاوز الحد ويخرج عن العرف والأخلاق فى قوله بعد البيت السابق :

وكأنما عِيسَى ابنُ مَرْيمَ ذِكْرُه وكأنَّ عَازرَ شَخْصُهُ المَقْبُورُ

والتشبيه فى البيت منتزع من قصة دينية هى إحياء سيدنا عيسى عليه السلام لعازر بعد موته بإذن الله والصورة تقوم من خلال تشبيه ذكره والثناء والحمد واستدامة حياته بهذا الذكر ، بذكر إحياء عيسى عليه السلام لعاذر بعد موته ودفنه .

وانظر إلى أثر فقد المرثى على عناصر الوجود وذلك فى قوله[2] :

فَالْيَومَ قَرَّ لِكُلِّ وَحْشٍ نَافِرٍ دَمُهُ وكَانَ كَأَنَّه يَتَطَلَّعُ

وَتَصَالَحَت ثَمَرُ السِّيَاطَ وَخَيلُهُ وَآوَتْ إلَيْهَا سَوقُهَا والأَذْرُعُ

والبيت الأول يصور هدوء الوحوش بعد قلق ، وأمنها بعد خوف لقد استقر دمها فى عروقها وهدأ وكان يتطلع إلى اليوم الذى يخرج من البدن خوفا وفزعا .

ولقد امتد سلطان المرثى إلى الوحوش يحكم فيها بما يشاء وفى هذا تكنية عن قوته ، وسعة سلطانه ، وكثرة أسفاره ، وملازمته للوحوش فهو جوَّاب فلوات ، صياد كواسر والتشبيه يقوم من خلال تشبيه دم الوحوش يجرى فى عروقها خوفا وفزعا من المرثى بمن يتهيأ ويتطلع للخروج من الجسد والهروب منه .

وترى فى البيت الثانى كيف تصالحت السياط والخيل بموته ، لأنه كان يضربها ويكرهها على العَدْوِ إلى العدو . فلما مات عادت إلى الخيل أذرعها وسوقها وكأنها غائبة وهذا كله كناية عن الركض الدائم إما للعدو وإما للصيد وإما لاستغاثة ملهوف .

---

(١) الديوان ٢/١٣١ .

(٢) المرجع السابق ٢/٢٧٦ .

وقد تراه يتوسل بالتصوير فى استعظام الموت وذلك فى قوله[1] :

كـان المَـوْتَ لَـمْ يَفْجَـعْ بِـنَفْسٍ وَلَـمْ يَخْطُـرْ لِمَخْلُـوقٍ بِبَـال

وفيه تشبيه عظم المصيبة فى موت أم سيف الدولة وبعثها لشديدَ الجزع ولواعج الأسى مما أنست مصيبتها كل المصائب والحزن عليها كل الأحزان بعدم الفجيعة بالموت فى نفس من النفوس وبعدم خطوره ببال مخلوق .

ووجه الشبه ضياع الشيء الصغير أمام الشيء الكبير . والتشبيه يُصوِّر فداحة المصاب وكأن ما كان من فجيعة فى النفوس بالموت قبل أم سيف الدولة لم يكن ولم يحدث . بل ولم يخطر لمخلوق ببال وهذه مبالغة من الشاعر ما أظن عاطفته فيها نحو الفقيدة عاطفة صادقة نعم فهو يريد إظهار عاطفته نحو سيف الدولة صديقه بمشاركته إياه فى حزنه لفقد أمه ، وتفجعه عليها .

وقد يتوسل بالتشبيه ليكنى عن استسهال الصعب كما فى قوله[2] :

مَشـيِ الأُمَـراءُ حَوْلَيهـا حُفَـاةً كـأَنَّ المَـرو مِـنْ زِفِّ الرِّئَـالِ

يصف جنازتها وهى تمضى إلى مرقدها الأخير ، والأمراء يمشون حول نعشها حفاة يطئون المرو ، ويدوسون جلاميد الصخر فلا يحسون بخشونة الأرض من هول الذهول . حتى لكأنها صارت فى نعومة حجارتها كريش النعام فى الملاسة والنعومة واللين .

وانظر إلى فلسفة الحياة والموت فى قوله[3] :

وَمـنْ لَـمْ يَعْشَـقِ الـدّنيْاَ قَـدِيمَا وَلكِـنْ لاَ سَـبِيل إلَـى الوِصَـالِ
نَصِـيبُكَ فـي حَيَاتِـكَ مِـنْ حَبِيـبٍ نَصِـيبُك فـي مَنامِـك مِـنْ خِيـالِ

فليس هناك من لم يعشق الدنيا أو من لم تأسره ببهجتها تلك سنة ماضية فيها من قديم ولكن لا سبيل إلى دوام الوصال فهى تمر وتنتهى إن الدنيا تتحول فى خيال الشاعر إلى فاتنة سابية آسرة بل إن نصيبه من وصالها فى حياته كنصيبه من وصال خياله فى منامه كلاهما يمضى فى سرعة وهكذا أراك الدنيا معشوقة فاتنة

---

(١) الديوان ٣/١١ . (٢) المرجع السابق ٣/١٧ . (٣) المرجع السابق ٣/٨ ، ٩.

استعارة وجعل الكل يفتن بها وجعل نصيبه من وصالها نصيبه من وصال خياله فى منامه فى وجه شبه هو سرعة انقطاعهما ، وزوالهما .

الفراغ من الحلم باليقظة والانتباه . والفراغ من الحياة بالموت والانتهاء .

وقد تراه يتوسل بالتصوير فى رسم صورة غريبة لأخت سيف الدولة ، حين ماتت ذلك أنه يرى أنها قد خطبت للموت وأنها خطبة ليس هناك من يملك ردها فأخت سيف الدولة حين لم تجد من الناس كفؤا لها يناسبها فى الشرف تزوجت من الموت وأرادته بعلا لها يقول فى ذلك[1] :

خِطْبَــةٌ لِلْحِمَــام لَــيْسَ لَهَــا رَدّ وإنْ كَانَــتَ المُسَــمّاة ثُكْــلا

وإذَا لَــمْ تَجِــدْ مِــنَ النَّــاسِ كُفْــوا ذَاتُ خِــدْرٍ أَرَادَتْ المــوتَ بَعْــلا

فانظر إليه كيف جعل الموت خطبة وإن كان الناس يسمونه ثكلا؟

ثم انظر كيف جعل المرثية تستعرض الرجال رجلا رجلا تبحث عن شريك لها يقاسمها حياتها ، وتهبه ما بقى من عمرها ، وهى الحصان العفيف فلما أعياها البحث عن كفؤ ولم تجده تزوجت من الموت وأرادته بعلا والتشبيه يقوم من خلال تشبيه الموت بالزوج فى الرفقة والمؤانسة .

وتراه يجعل من الموت سارقا فى دقة خفائه ، وعدم رؤيته وإن كانت آثاره مرئية فى تخطفه لفلذات أكبادنا ، ومهج أرواحنا يقول معزيا سيف الدولة فى فقد ولده[2] :

وَمَــا المَــوْتُ إلاَّ سَــارِقٌ دَقَّ شَخْصُــهُ يَصُــولُ بِــلاَ كَــفٍّ وَيَسْــعَى بِــلاَ رِجْــلِ

فالموت صوال جوال على سبيل الاستعارة فى دقة وخفاء وقد تراه يعتب على الموت ويصفه بالغدر ويعدد مآسيه وجرائمه فى مرثيته لأخت سيف الدولة والتى صدر فى رثائه إياها عن عاطفة صادقة حزينة وذلك فى قوله[3] :

لاَ يَمْلِــكُ الطّــرب المَحْــزونُ مَنْطِقَــه وَدَمْعــه وَهُمَــا فــي قَبْضَــة الطَّــرَبِ

غَــدَرْتَ يَا مَوْتُ كَمْ أَفْنَيْتَ مِنْ عَدَدٍ بَمِنْ أَصَبْتَ وكَم أَسْكَتَّ مِنْ لَجَبِ

وَكَــمْ صَــحِبْت أَخَاهَــا فــي مُنَازَلَــةٍ وَكَــمْ سَــأَلْت فَلَــمَ يَبْخَــل وَلَــمَ تَخــبِ

---

(١) الديوان ١٢٩/٣ . (٢) المرجع السابق ٤٨/٣ . (٣) المرجع السابق ٨٦/١ ، ٨٧.

فانظر كيف استبد به الحزن فلم يعد قادرا على النطق بعد أن أصبح فى قبضته؟ وهكذا جعل للحزن قبضة استعارة كما جعل من الموت مخاطبا يخاطب ، وتحصى عليه أفعاله التى أفنى بها ما لا يحصر ولا يعد والذى أسكت بسببها الأصوات والجلبة ثم بدأ يلومه لأن المرثية التى اختطفها هى أخت سيف الدولة الذى يصحبه فى المعارك والذى لا يبخل عليه أبدا حين يسأله أن يفنى العدد الكثير ويُهْلك الجيوش التى لها أصوات عالية وكان من حقه عليه عدم فجيعته بأخته ، والتصوير على هذا النحو يجرى فى ميدان الاستعارة وأحسب أن المتنبى قد استطاع من خلال تصوير الرثاء أن يفسر ما بين الحياة والموت من علاقة كما أنه استمد مواد صوره من الكون الواسع العريض ومن الإحساس الداخلى الذى أظهر من خلاله تفجعه وتحسره على مآثر المرثى وفضائله وغير ذلك إلى ما سبق أن ذكرته من أن المتنبى كان أحيانا يصدر فى رثائه عن عاطفة جياشة صادقة حزينة وملتاعة وأخرى عن عاطفة مصطنعة لا تحس فيها بحرارة الثكل ، ولا بعذاب الفقد ، ولا بمرارة الفرقة وآلام الوداع .

تصوير المرأة

توسل المتنبى بالتصوير البيانى فى وصفه للمرأة ، ولما يراه من حسن وجمال ، وهو يصور بالتشبيه كيف تظلمه كظلم متنها لخصرها .

وهو الذى أنحله العشق ، وبراه ، فصار كخصرها فى الدقة ثم يشبه شعرها الكثيف بالليل فى سواده ، ووجهها بالصبح فى ضيائه وإشراقه فيقول[1] :

ظلـوم كَمَتْنَيْهَـا لِصَـبٌّ كخَصْـرِهَا ضَـعِيفُ القُـوى مِـنْ فِعْلِهَـا يَـتَظَلَّمُ

بِفَـرْعٍ يُعِيـدُ اللَّيْـلَ والصـبحُ نَيِّـرٌ وَوَجـهٍ يُعِيـد الصُّـبْح واللَّيـلُ مُظْلِـمُ

فهو محب عاشق ، نحيل ، فى مثل خصرها فى نحوله ودقته . وهو يتظلم من فعلها ، ويشتكى كما يشتكى خصرها من ثقل متنها فالتشبيه فى تخريجه يحتاج إلى شىء من التمهل فى فهم غرض الشاعر فهو يشبه العاشق الصب بالخصر فى

---

(١) الديوان ٤/٨٢ .

الدقة والنحولة ، ويشبه ظلمها له بظلم متنيها لخصرها ووجه الشبه بين الطرفين . هو أن كلا منهما يتحمل فوق طاقته ، وقدرته .

وفى البيت الثانى : يشبه الشعر الفاحم فى قوله : (بفرع) بالليل فى سواده تشبيها ضمنيا حيث طوى التشبيه طيا ، ولم يصرح به . وإنما فهم من خلال الكلام ومضمونه . فالفرع الذى يعيد الليل فترى ظلمته فى وضح النهار إنما يقصد تشبيهه بالليل فى سواده ، وظلمته وقل مثل ذلك فى الوجه المضىء المشرق . الذى يعيد الصبح فترى فيه ما ترى فى الصبح من إشراقة شمسه وتألق ضيائه فى وقت يكون الليل قد أسدل على الكون أستاره ، وتزاحمت مواكب ظلمته . وقد تلمس من خلال الثنائيات المتضادة فى طرفى التشبيه بين الليل العائد ، والصبح العائد ، ونير ومظلم ، مدى الإحساس بسواد الشعر ، وبياض الوجه كمشبهين بالليل والشمس والتى لا تكون إلا حيث يكون نور الصبح .

وانظر إليه وهو يبرز مفاتن الوجه فيصوره من خلف القناع الذى يحد من شدة إشراقته ويحجب شيئا من بريقه ، وألقه ، بالبدر المشرق المتألق ، يبعث بأضوائه ، وأنواره من وراء غيم شفيف رقيق . وذلك فى قوله :

كَـــأَنَّ نِقَابَهَـــا غَـــيْمٌ رَقِيـــقٌ يُضِـــىء بِمَنْعِـــه الْبَـــدْر الطُّلُوعَـــا

ولا يخفى أن وجه الشبه فى هذه الصورة هو الهيئة الحاصلة من وجود شىء مشرق متألق يسطع بأنواره ، ويبعث بأضوائه من وراء شىء شفيف رقيق وإذا كان التشبيه قد صور فى هذه الصورة الوجه بعيدا عن الشعر فانظر إليه وهو يصور الشعر المتدلى فى كثافته وغزارته ، وكيف ينفح بالطيب ، ويبعث بشذى الورود والزهور فى قوله[1] :

ذَاتُ فَـــرْعٍ كَأَنَّمَـــا ضَـــرَبَ العَنْـــ ـــبَرُ فِيـــهِ بِمَـــاءِ وَرْدٍ وَعُـــودِ
حَالِـــكٍ كالغُـــدَافِ جَثْـــلٍ دَجُـــو جِـــىٍّ أثيـــتٍ جَعْـــدٍ بِـــلاَ تَجْعِيـــدِ
تَحْمِـــلُ الْمِسْـــكَ عَـــنْ غَـــدَائِرِهَا الرِّيـــ ـــحُ وتفتَـــرُّ عَـــنْ شَـــتِيتٍ بَـــرُودِ

---

(١) الديوان ١/٣١٦ ، ٣١٧ .

ففى البيت الأول : يصف شعرها بطيب الرائحة فيشبه غدائره الكثيفة فى رائحتها الذكية الطيبة بمن خلطت بماء الورد ورائحة العود فى حسن الطيب ، وجميل الرائحة .

وفى البيت الثانى : يشبه تلك الغدائر فى كثافتها ، والتفافها . وشدة سوادها بالغراب فى لونه ، وشدة سواده والتشبيه يبين مقدار حال المشبه وما هو عليه من شدة السواد .

وفى البيت الثالث : يشبه رائحة الشعر برائحة الطيب والمسك فى طيب الرائحة والتشبيه ضمنى فإذا كانت الريح تحمل عن غدائر هذا الشعر المسك فإن معنى ذلك تشبيه رائحة الشعر برائحة المسك فى حسن الطيب .

وانظر إلى جمال الأعناق وسحر العيون فى قوله[1] :

كَـمْ قَتِيـلٍ كَمـا قُتِلـتُ شَـهِيدٍ ... بِبَيَـاضِ الطُّلَـيِ وَوَرْدِ الخُـدُودِ

وَعُيُـونِ المَهَـا، وَلاَ كَعُيُـونٍ ... فَتَكَـتْ بِـالمُيتِمِ المَعْمُـودِ

فهو يتحدث عن قتلى العيون ، ولون النحور ، وتورد الخدود .

وانظر كيف جعل العيون قاتلة وإلى ما صنعه جمالها من أثر فيمن صرع بها استعارة؟

ثم انظر إلى التشبيه فى آخر البيت الأول حين شبه لون الخدود ، بلون الورود . وقد أضيف المشبه به إلى المشبه وهذه الإضافة رفعت من جمال المشبه حتى ليخيل إليك أن المشبه به وهو الورود ، نوعان : نوع عام مشترك ، ونوع خاص بالوجوه ، وهو ما شبه به هنا أنه ورد الخدود وليس غيرها .

وفى البيت الثانى : يشبه عيون المها فى فتكها بالعيون التى فتكت به فى الشدة ، والقوة ، والتأثير .

أى إن العيون التى فتكت به عيون لا شبيه لها وأن ذلك ما يدل عليه وقوع « لا » بين المشبهين وقد يتوسل بالتشبيه فى تصوير القرب من الحبيبة والبعد عنها فهى

---

(١) الديوان ١/٣١٣ .

تطمعه برقة حديثها ، وابتسامة ثغرها ، وبشاشة وجهها ، ولكنها تيئسه بتأبيها ، وتمنعها ، وصدها . يقول فى ذلك[1] :

بَيْضَـاءُ تُطْمِـعُ فِيمَـا تَحْـتَ حُلَّتِهـا ... وَعَـزَّ ذَلِـكَ مَطْلُوبـاً إذا طُلِبَـا

كَأَنَّهَـا الشَّـمْسُ يُعْيِـى كَـفَّ قَابِضِـه ... شُـعَاعُهَا وَيَـراه الطَّـرْفُ مُقْتربَـا

إنها ذكية تستخدم معه سلاح الفتنة ، والإغراء . وهى ما تجيد استخدامه حتى يدنو منها ، ويقترب فإذا ما فعل وظن أنه قبض بيديه عليهـا ، فتـح يـده فـإذا بـه لا يقبض على شىء سوى الريح . لقد فرت ونأت إلى مكان لا يستطيع أن يصل إليها فيه بعد إطماعها له . وهكذا تعرف كيف تلعب به وهذه الخطرات النفسية مما يحكيها التشبيه الذى يقوم من خلال تشبيه حال هذه المرأة فى إطماعها له ، وقربها منه ثم بعدها عنه وصدها له بحال شعاع الشمس قريب من طرف العين فإذا ما حاول الإنسان الإمساك به ، والقبض عليه ، تفلت منه ، وتعذر عليه ولم يجد شيئا ووجه الشبه هو الهيئة الحاصلة من حال الشىء يتناهى فى قربه ، ثم يتناهى فى بعده فى آن واحد ، ووقت واحد وانظر إلى وصفها بالبياض والتكنية فى قوله : تطمع فيما تحت حلتها ، وفى قوله : وعز ذلك مطلوبا إذا طلبا .

ثم انظر إليه كيف يجعل منها شيئا فوق الشمس فى الحسن والإشراق ، وفوق قضيب البان فى الليونة والتثنى .

وذلك فى قوله :

خَرِيدَةٌ لَوَ رأتهَا الشَّمسُ مـا طَلَعَـتْ ... وَلَـوْ رآهَـا قَضِـيبُ البَـانِ لَـمْ يَمَـسِ

مَـا ضَـاقَ قَبْلَـكَ خَلْخَـالٌ عَلـى رَشَـإٍ ... وَلاَ سَـمِعْتُ بِـدَيباجٍ عَلَـى كَـنِسَ

وتشبيهها بالشمس وغصن البان فى البيت الأول تشبيه قريب ولكن صياغة التشبيه على نحو يجعل الشمس لو رأت الحبيبة ما جرأت على الإشراق والطلوع ، لأنها أكثر منها إشراقا . ويجعل قضيب البان لو أبصرهـا ما جـرأ على أن يتأود ، أو أن يتثنى لأنها أكثر منه ليونة تتجاوز بالتشبيه دائرة القرب إلى منطقة البعد ، وتخرج به من الابتذال إلى المنعة والارتفاع .

---

(١) الديوان ١/١١١ .

وانظر إليه فى البيت الثانى وقد جعل منها رشأ وكنسا على سبيل الاستعارة ومبالغة فى حسنها وجمالها .

وانظر كيف يسكر القد من خمر الطرف فى قوله[1] :

كأنَّمَـــا قـــدُّهَا إذا انْفَتَلَـــتْ سَـــكْرَان مِـــنْ خَمْـــرِ طَرْفِهَـــا ثَمِـــل

وانظر إلى الحب كيف يجرى فى قلبه مجرى الدم فى مفاصله؟[2] :

جَرَى حُبُّهَا مَجْرى دَمِى فِى مَفاصِلى فأصبحَ لَهُ عَنْ كُلِّ شَغْلٍ بِهَا شُغْلُ

وكيف جعل من سهاد الليل عاشقا لمقلته يصلها ويقطع عنها النوم حين تهجره الحبيبة فى قوله :

كَـأنَّ سُـهَادَ اللَّيْـلِ يَعْشَـقُ مُقْلَتِـى فَبَيْنَهُمَـا فِـى كُـلِّ هَجْـرٍ لَنَـا وَصْـلُ

وانظر إلى وجده كيف يعظم ، ويشتد حتى يصل إلى درجة لو عاشها الحمام لناح معه شجر الأراك وذلك فى قوله[3] :

يَجِـدُ الحَمَـامُ ولـوْ كَوَجْـدِى لانْبَـرى شَـجرُ الأرَاكِ مَـعَ الحَمَـامِ يَنُـوحُ

وانظر إلى نفس الشاعر وهى تتقطع حسرات ، وتفيض أسى وحزنا حين تغيب الحمول بالحبيب راحلة ، وقد جلا الوداع محاسنه الفاتنة ، حتى لقد صار يرى القبح فى كلمة يسمعها تسرّى عنه همه . مهما كانت حسنة وجميلة كما فى قوله[4]:

ولَمَّـا تَقَطَّعَـتِ الحُمُـولُ تَقَطَّعَـتْ نَفَـسِـى أسًـى وَكَـأنَّهُنَّ طُلُـوحُ
وَجَـلاَ الـوَدَاعُ مِـنْ الحَبِيـبِ مَحَاسِـناً حُسْـنُ العَـزَاءِ وقـد جُلـين قَبِـيحُ
فَيَـدُ مُسَـلَّمة وطَـرْفٌ شَـاخِصٌ وَحشًـى يَـذُوبُ وَمَـدْمَع مَسْـفُوحُ

وهكذا تذهب نفسه حزنا بذهاب الحمول التى تحمل الأحباب إلى مكان بعيد ، وتذوب أحشاء نفسه من هول الموقف بعد أن سلمت يده ، وشخص بصره ، وفاضت بالدمع عينه .

وانظر كيف عبر عن الإبل بالأحمال التى تحملها على طريقة المجاز المرسل لعلاقة المجاورة ، وكيف عبر عن التفريق بالتقطيع وعن توزع النفس ، وذهولها

---

(١) الديوان ٣/٢١٠ .
(٢) المرجع السابق ٣/١٨١ .
(٣) المرجع السابق ١/٢٤٧ .
(٤) المرجع السابق ١/٢٤٦، ٢٤٧.

بالتقطيع كذلك وكيف أراك الأحشاء وهى تنصهر ، وتذوب كل ذلك عن طريق الاستعارة وكيف شبه الإبل وعليها الهوادج بالأشجار فى الثكل .

وأنت تحس من قول المتنبى ، صدق العاطفة ، وخفق القلب وصفاء الخاطر ، ونبع النفس ، وقدرته على تصوير مواقف الوداع تصويرا دقيقا .

انظر إليه وهو يصور حال نفسه بعد رحيل الأحباب المفاجئ وكيف سابق دمعه ذملان العيس التى أقلتهم إلى مكان بعيد . فيقول[1] :

تَوَلَّـــوْا بَغْتَـــةً فكـــأنَّ بيْنـــاً ... تَهَيَّنَّـــي ففَاجـــأنِى اغْتِيَـــالاَ

فَكَـــانَ مَسِـــيرِ عِيســـهِمْ ذَمِـــيلاً ... وَمَسْـــيرُ الـــدَّمْعِ إثْـــرهُمُ انْهِمَـــالاَ

كَـــأنَّ العِـــيسَ كَانَـــتْ فَـــوْقَ جَفْنِـــى ... مُناخَـــاتٍ فَلَمَّـــا ثُـــرْن سَـــالاَ

وَجَجَّبَـــتَ النَّـــوَى الظَّبْيَـــاتِ عَنِّـــي ... فَسَـــاعَدَتِ البَراقِـــعِ والحِجَـــالاَ

وأنت ترى الشاعر يصور ما حدث له على أثر تولى الأحباب بغته والعيس تمضى بهم بعيدا عن عينه وتسير ، وكيف انهمر دمعه فى شدة على أثر ذملان الإبل ورحيلها بهم إلى حيث لا يستطيع أن يراهم ، وانظر إلى هذا التوهم القائم فى نفس الشاعر بسبب تولى الظبيات بغته والذى ظن معه تهيب البين له ، وخوفه منه فلم يجرؤ على أن يواجهه فى الساحة ، ولا أن ينازله فى الميدان فأخذه على غرة وفاجأه من غير توقع بالاغتيال؟ ولعل الشاعر لم يكن يتوقع الرحيل على هذا النحو من السرعة ، أو لم يكن يضعه فى حسابه حتى يهيئ نفسه لقبوله . فيكون وقعه عليه ليس بهذه القسوة والشدة .

وانظر كيف عطف البيت الثانى مربوطا آخره بأوله على البيت الأول مضموما إلى أوله ما وليه إلى آخره؟ وكيف أوقفك هذا على مقصود الشاعر ، وغرضه من كلامه الذى جعل توليهم بغتة ، وتوهمه بسبب هذا التولى أن البين تهيبه ، مستدعيا بكاءه وليس يعنيه من ذكر ذملان العيس إلا ذكر ذملان الدمع مع التوفيق بينهما[2]؟

وفى البيت الثالث يحكى التشبيه حال عينيه قبل الرحيل وبعده .

---

(١) الديوان ٣/٢٢١ ، ٢٢٢ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ١٦١ طبعة رشيد رضا بتصرف .

فيشبه حال عينيه من عدم البكاء فى وجود الأحبة والبكاء بعد الرحيل بحال جفونه وقد كانت الإبل مناخة فوقها تمسك بكاءها ، وتمنعه .

فلما أثاروها للرحيل فاضت بالدمع عيناه .

وفى البيت الرابع : يصور كيف تعاونت النوى وتناصرت مع البراقع فى حجب الظبيات عنه؟ وانظر كيف استعار الظبيات للحبيبات .

وانظر إليه وهو يتفنن فى رسم لحظة الوداع على عين الحبيب فى قوله[1]:

وَلَـمْ أَرَ كالألحـاظِ يـوم رَحِـيلِهِمْ بَعَـثْن بِكُـلّ القَتْـل مِـنْ كُـلّ مُشْـفِقِ

أَدَرْنَ عُيُونـاً حَـائِرَاتٍ كأَنَّهـا مُرَكَّبَـة أحْـدَاقُها فَـوْقَ زِئْبَـقِ

ففى البيت الأول ينفى أن يكون قد رأى الألحاظ كما رآها فى يوم الرحيل وقد أرسلت من نظراتها سهاما إلى القلوب فأردتها وقتلتها .

وفى البيت الثانى : تراه يحكى الحيرة ، والشرود ، والذهول ، والتوتر ، فى لحظات الوداع ، من خلال تشبيه حركة العيون فى اضطرابها وحيرتها وعدم سكونها بحركة العيون المركبة على الزئبق فهى غير ساكنة ، ولا ثابتة فى وجه شبه هو الحركة المضطربة غير الثابتة ولا المستقرة .

وأنت تراه يصور الأنوثة البضة الفاتنة ، فى رقة وعذوبة ، وهمس ، وذلك فى قوله[2] :

حِسَـانُ التثنـى يـنقش الوَشْـىُ مِثْلَـه إذَا مِسـنْ فِـى أَجْسَـامِهِن النّـواعَمِ

ويَبْسِـمْنَ عـن دُرٍّ تَقَلَّـدْن مِثْلَـهُ كَـأَنَّ التَّراقِـى وُشِّـحَت بالَمَبَاسِـمِ

فهن حسان فى تثنيهين والوشى يطبع مثل صورته على أجسامهن النواعم إذا مسن وتبخترن ، ويبسمن عن در استعارة فأسنانهن كالدر فى قلائد هن در مثله فكأن النحور وشحت بالثغور والعناصر التى تشكلت منها الصورة هى : التثنى والوشى ، والدر ، والتراقى ، والمباسم عناصر غزلية رقيقة ، هامسة . فكأنها خلقت للغزل ووجدت من أجله وبهذا يكون المتنبى قد استثمر الغزل ووظفه فى تكوين

---

(١) الديوان ٢/٣٠٧ ، ٣٠٨

(٢) المرجع السابق ٤/١١١ .

صوره البلاغية ومن منظور حسى غير منفصل عن رؤية الشاعر الداخلية والباطنية فى بعض الأمور وهو فى غزله يسير على طريقة القدماء فى وصف محاسن المرأة ، وفى التغنى بمفاتنها وجمالها فعناصر الصورة عنده عناصر تقليدية فالمرأة بدر وقمر وشمس ، وأسنانها در ، وجسدها ناعم ، وعيناها قاتلتان وهكذا .

غير أنه فضل الأعرابيات البدويات على الحضريات ، وتغنى بجمالهن وعفتهن انظر إلى قوله[1] :

مَـنِ الجَـآذِرِ فِـى زِىّ الأعَارِيـب حُمْـر الْحَلـى والمَطَايَـا والجَلاَبِيـبِ

فالأعرابيات كالجآزر فى خفتهن وجمال عيونهن .

ثم يبدأ فى عقد المقارنة بين الحضريات والبدويات ويفضل البدويات انظر إلى قوله[2] :

مَـا أَوْجُـه الْحَضـر الْمُستَحسَنات بِـهِ كأَوْجُـــه البَـــدَوِيَّات الرَّعَابِيـــبِ
حُسْـنُ الحضَـارة مَجْلُـوبُ بتطْريـةٍ وَفِـى الحَضَـارَةَ حُسْـنٌ غَيْـرُ مَجْلُـوبِ
أَيـــنْ المعِيـــزُ مـــنِ الآرَامِ نَـــاظِرَة وَغَيـر نـاظرةٍ فِـى الْحُسْـن والطِّيـبِ؟
أَقْـدِى ظِبَـاء فَـلاَةٍ مَـا عَـرفْن بِهَـا مَضْـغَ الْكَـلاَمِ ولاَ صَـبغ الحَوَاجِيـبِ

فالحسن فى الحضارة : حسن مجلوب مصطنع فهو حسن مزيف .

أما الحسن فى البداوة : فهو حسن أصيل ، بعد أن نفى أن يكون وجه الحضريات كوجه البدويات ثم جعل من الحضريات معيزا وجعل من البدويات آراما ولا مجال للمقارنة بين الآرام والمعيز .

* * *

(١) الديوان ١/١٥٩ .

(٢) المرجع السابق ١/١٦٨ ، ١٦٩ .